

﴿وَكَلَامَ﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبا ﴿نَقَصَ عَلَيْكَ﴾ و ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ بيان لكل و ﴿مَا نَثَبْتَ بِهِ فَوَازِكَ﴾ بدل من كَلَامٍ، ويجوز أن يكون المعنى: وكل اقتصاص نقص عليك على معنى، وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك يعني: على الأساليب المختلفة، وما نثبت به مفعول نقص ومعنى: تثبتت فؤاده زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه؛ لأن تكثر الأدلة اثبت للقلب وأرسخ للعلم ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَنُكْرَى * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿اعْمَلُوا﴾ على حالكم وجهتم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ كُلُّ شَيْءٍ فَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وَهُوَ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وَالِيهِ يَرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك وكافلك ﴿مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وقرئ: تعملون بالتاء أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صلَّق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى، وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف مكية

الرَّءْيَا تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْبُرْهَانِ ﴿١﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة و ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ السورة أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم، أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، أو الواضحة التي لا تشبهه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو قد أبين فيها ما سالت عنه اليهود من قصة يوسف، فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين:

قُلْتُ: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات كان معطوفاً على مضمراً؛ لأن المعنى إلا قليلاً ممن أنجبنا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو: عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزء الإتراف قالوا: أو للحال كأنه قيل: أنجبنا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزءهم.

فإن قُلْتُ: فقله: ﴿وَكُنَّا مُجْرِمِينَ﴾؟ قُلْتُ: على اتروفا أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا أي: اتبعوا شهواتهم وكنوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَنَّهَا مَتَّيْنَةٌ ﴿١٣٧﴾

﴿كَانَ﴾ بمعنى: صح واستقام. واللام لتأكيد النفي و ﴿بِظُلْمٍ﴾ حال من الفاعل والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظلماً لها ﴿وَأَهْلِهَا﴾ قوم ﴿مُصْلِحُونَ﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيداناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمنون إلى شركهم فساداً آخر.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أَتَمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَنَّكَ جَهَنَّمَ بِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿ولو شاء ربك لجمع الناس أمة واحدة﴾ يعني: لاضطرهم إلى أن يكون أهل أمة واحدة أي: ملة واحدة وهي: ملة الإسلام كقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾⁽¹⁾ وهذا الكلام يتضمن نفي اضطرار، وإنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختر بعضهم الحق، وبعضهم الباطل، فاختلَفوا فلذلك قال: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿ولذلك خلقهم﴾ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأول وتضمنه يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ﴿وتمَّتْ كلمة ربك﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

رَكُلًا نَقَصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتَ بِهِ، فَوَازِكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَنْ مَكَانِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٣٩﴾

(1) سورة الأنبياء، الآية: 92، وسورة المؤمنون، الآية: 52.

(2) ذكره ابن مردويه الواحدي في تفسيره الوسيط، وابن الجوزي والزبيعي 157/2.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدًا ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُكَ لَا تَقْضُ رَهْبًا عَلَيْكَ
إِنِّي أَخْتَصِمُ لَكَ بِكَذِّبِكُمْ إِنَّ أَكْثَرِي لَكَاذِبُونَ ﴿٥﴾

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بدل من أحسن القصص وهو من
بدل الاشتغال؛ لأنَّ الوقت مشتمل على القصص، وهو:
المقصود، فإذا قَصَّ وقته فقد قَصَّ، أو بإضمار انكر،
ويوسف اسم عبراني وقيل: عربي وليس بصحيح؛ لأنه لو
كان عربيًّا لانصرف لخلوِّه عن سبب آخر سوى التعريف.

فإن قُلْتُ: فما تقول فيمن قرأ يوسف بكسر السين أو
يوسف بفتحها؟ هل يجوز على قراءته أن يقال هو عربي؛
لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل، أو المفعول من
أسف، وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؛ قُلْتُ: لا لأنَّ
القراءة المشهورة قامت بالشهادة على أنَّ الكلمة أعجمية، فلا
تكون عربية تارة وأعجمية أخرى. ونحو يوسف يونس
رويت فيه هذه اللغات الثلاث، ولا يقال: هو عربي؛ لأنه في
لغتين منها بوزن المضارع من أس وأونس، وعن النبي ﷺ:
«إذا قيل من الكريم؟ فقولوا: الكريم ابن الكريم ابن الكريم
ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»⁽³⁾ «يا
أبت» قرئ بالحرركات الثلاث.

فإن قُلْتُ: ما هذه التاء؟ قُلْتُ: تاء تانيث وقعت عوضًا من
ياء الإضافة، والدليل على أنها تاء تانيث قلبها هاء في
الوقف.

فإن قُلْتُ: كيف جاز إلحاق تاء التانيث بالمنكر؟ قُلْتُ: كما
جاز نحو قولك: حمامة نكر وشاة نكر ورجل ربعة وغلّام
يفعة.

فإن قُلْتُ: فلم ساغ تعويض تاء التانيث من ياء الإضافة؟
قُلْتُ: لأنَّ التانيث والإضافة يتناسبان في أنَّ كل واحد منهما
زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره.

فإن قُلْتُ: فما هذه الكسرة؟ قُلْتُ: هي الكسرة التي كانت
قبل الياء في قولك: يا أباي قد زحلت إلى التاء لاقتضاء تاء
التانيث أن يكون ما قبلها مفتوحًا.

فإن قُلْتُ: فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي
اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة؟ قُلْتُ: امتنع ذلك فيها لأنها
اسم، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب، وإنما
جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرك تخفيفًا، لأنها حرف لين،
وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير فلزم تحريكها.

فإن قُلْتُ: يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة
الجمع بين العوض والمعوض منه؛ لأنها في حكم الياء إذا

سلوا محمدًا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن
قصة يوسف.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

﴿انزلناه﴾ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في
حال كونه ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ وسمي بعض القرآن قرآنًا؛ لأنَّ
القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه ﴿لعلكم تعقلون﴾
إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ﴿ولو
جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته﴾⁽¹⁾.

عَنْ نَقْضِ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَمَرِ بِأَوْجِيحًا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ
رَبِّكَ حَكَمْتَ مِنْ قَبْلِهِ، لَمِنَ الْفَتَاوَى ﴿٧﴾

﴿القصص﴾ على وجهين يكون مصدرًا بمعنى:
الاقترصاص تقول: قَصَّ الحديث يقصه قصصًا كقولك: شله
يشله شللاً إذا طرده، ويكون فعلاً بمعنى مفعول كالنقض
والحسب ونحوه: النبا والخبر في معنى: المنبا به والمخبر
به، ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر كالخلق
والصيد، وإن أريد المصدر فمعناه: نحن نقص عليك أحسن
الاقترصاص ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي: بإيحاءنا
إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوبًا نصب
المصدر لإضافته إليه ويكون المقصود محذوفًا؛ لأنَّ قوله:
﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ مغن عنه، ويجوز أن
ينتصب هذا القرآن بنقص كانه قيل: نحن نقص عليك
أحسن الاقترصاص هذا القرآن بإيحاءنا إليك، والمراد
بأحسن الاقترصاص: أنه اقتص على أبداع طريقة وأعجب
أسلوب، إلا ترى أن هذا الحديث مقتص في كتب الأولين
وفي كتب التواريخ ولا ترى اقترصاصه في كتاب منها
مقاربًا لاقتصاصه في القرآن، وإن أريد بالقصص
المقصود فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من
الاحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت
والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، والظاهر أنه⁽²⁾
أحسن ما يقتص في بابيه كما يقال في الرجل: هو أعلم
الناس وأفضلهم يراد في فنه.

فإن قُلْتُ: مم اشتقاق ﴿القصص﴾؟ قُلْتُ: من قص أثره
إذا تبعه؛ لأنَّ الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئًا
فشيئًا كما يقال: تلا القرآن إذا قرأه؛ لأنه يتلو أي: يتبع ما
حفظ منه آية بعد آية ﴿وإن كنت﴾ إن مخففة من الثقيلة.
واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في
﴿قبله﴾ راجع إلى قوله: ﴿بما أوحينا﴾ والمعنى: وإنَّ الشأن
والحديث كنت من قبل إيحاءنا إليك من الغافلين عنه أي: من
الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط، ولا طرق سمعك طرف
منه.

(1) سورة فصلت، الآية: 44. = كتاب: الانبياء باب: «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت»
(الحديث رقم: 3382) ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل
يوسف عليه السلام (الحديث رقم: 6111).

(2) لعله في غيره، كعبارة النسفي.
(3) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة يوسف
(الحديث رقم: 3116) والحاكم في المستدرک 2/570، والبخاري في =

أربعون سنة وقيل: ثمانون.

فإن قُلْتُ: لم أخرج الشمس والقمر؟ **قُلْتُ:** أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص بياناً لفضلهما واستبدادهما بالزمية على غيرهما من الطوالع، كما أخرج جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر.

فإن قُلْتُ (2): ما معنى تكرار **«رأيت»**؟ **قُلْتُ:** ليس بتكرار وإنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له كان يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: **«إني رأيت أحد عشر كوكباً»** كيف رأيتها؟ سائلاً عن حال رؤيتها، فقال: **«رأيتهم لي ساجدين»**.

فإن قُلْتُ: فلم أجريت مجرى العقلاء في **«رأيتهم لي ساجدين»**؟ **قُلْتُ:** لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملازمة والمقاربة. عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أنّ يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بأبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم. والرؤيا بمعنى: الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام نون اليقظة، فرق بينها بحرفي التانيث كما قيل: القربة والقربى، وقرئ: رويك بقلب الهمزة أو، وسمع الكسائي: ريك وريك بالإدغام وضم الراء وكسرها وهي ضعيفة؛ لأنّ الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم: اتز من الإزار واتجر من الأجر **«فيكيدوا»** منصوب بإضمار أن والمعنى: إن قصصتها عليهم كادوك.

فإن قُلْتُ: هلا قيل: فيكيدوك كما قيل: **«فكيدوني»** (3) **قُلْتُ:** ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون أكد وأبلغ في التخويف وذلك نحو: فيحتالوا لك ألا ترى إلى توكيده بالمصدر **«عدو عبين»** ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء ولقوله: **«لاقعنن لهم صراطك المستقيم»** (4) فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ليورط من يحمله ولا يؤمن أن يحلمهم على مثله.

وَكَذَلِكَ يَجْبِيكَ رُبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِثْمَتِهِ عَلَيْنِكَ وَنَلَكَ مَا لَمْ يَمُوتُ بِكَ كَمَا أَنَّهَا عَلَى أَوْلِيكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾

«وكنلك» ومثل ذلك الاجتناب **«يجتبيك ربك»** يعني:

قلت: يا غلام، فكما لا يجوز يا أبتى لا يجوز يا أبت؟ **قُلْتُ:** الباء والكسرة قبلها شيطان، والياء عوض من أحد الشيتين وهو الباء، والكسرة غير متعرض لها، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير، ألا ترى إلى قولهم: يا أبتا مع كون الألف فيه بدلاً من الياء كيف جاز الجمع بينهما وبين التاء ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوض منه، فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قُلْتُ: فقد دلت الكسرة في يا غلام على الإضافة؛ لأنها قرينة الباء ولصيققتها فإن دلت على مثل ذلك في يا أبت فالتاء المعوضة لغو وجودها كعدمها **قُلْتُ:** بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت: يا أبي.

فإن قُلْتُ: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ **قُلْتُ:** أما من فتح فقد حذف الألف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الباء في يا غلام، ويجوز أن يقال: حركها بحركة الباء المعوض منها في قولك: يا أبي، وأما من ضم فقد رأى اسماً في آخره تاء تانيث فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال: يا أبت كما تقول: ياتبة من غير اعتبار لكونها عوضاً من غير ياء الإضافة. وقرئ: **«إني رأيت بتحريك الباء، وأحد عشر بسكون العين تخفيفاً لتوالي المتحركات فيما هو في حكم اسم واحد وكذا إلى تسعة عشر إلا اثني عشر لئلا يلتقي ساكنان، ورأيت من الرؤيا لا من الرؤية؛ لأنّ ما نكره معلوم أنه منام؛ لأن الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ولما خفيت عليه وعلى الناس.**

فإن قُلْتُ: ما أسماء تلك الكواكب؟ **قُلْتُ:** روى جابر أنّ يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت رسول الله ﷺ، فنزل جبريل عليه السلام، فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لليهودي: **«إن أخبرتك هل تسلم»**؟ قال: نعم، قال: **«جريان والطارق والنيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب ونو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له»**. فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها⁽¹⁾، وقيل: الشمس والقمر أبواه، وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته، وعن وهب: أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصاً طوالاً كانت مركزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن اثني عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه فقال له: لا تقصها عليهم فيأخوها لك الغوائل، وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه

= السجود كانت، والله أعلم.

(3) سورة هود، الآية: 55.

(4) سورة الاعراف، الآية: 16.

(1) رواه الحاكم في المستدرک 396/4.

(2) قال أحمد: وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل والحال، فطري ذكر الفعل لمناسبة الحال، وهي المقصودة، إذ الآية في =

بيان لأبويك ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يحق له الاجتباء ﴿حَكْمٌ﴾ لا يتم نعمته إلا على من يستحقها.

﴿لَمَّا كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ آيَاتٍ﴾ (٧).

﴿في يوسف وإخوته﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿آيات﴾ علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء ﴿للسائلين﴾ لمن سأل عن قصتهم وعرفها، وقيل: آيات على نبوة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب. وقرئ: آية، وفي بعض المصاحف: عبرة، وقيل: إنما قصص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغي إخوته عليه لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به، وقيل: أساميهيم: يهودا وروبييل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينه ودان ونفتالي وجاد، وأشر، السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَصَبٌ﴾ (٨) ﴿إِنَّا لَنُحِبُّكَ لِيُوسُفَ﴾ (٩).

﴿ليوسف﴾ (٣) اللام للابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أرنوا: أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ﴿وأخوه﴾ هو: بنيامين وإنما قالوا: أخوه وهم جميعاً إخوته؛ لأن أهمها كانت واحدة، وقيل: ﴿أحب﴾ في الاثنين؛ لأن أفعال من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه من، ولا بد من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف جاز الأمران. والواو في ﴿ونحن غصبة﴾ أو الحال يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿إِنَّا لَنُحِبُّكَ لِيُوسُفَ﴾ أي: في نهب عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً، وقيل: إلى الأربعين سموا بذلك؛ لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النواشب، وروى النزال بن سبرة عن علي

وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن كذلك يجتبيك ربك لأمر عظام وقوله: ﴿ويعلمك﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل: وهو يعلمك ويتم نعمته عليك، والاجتباء الاصطفاء افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض جمعته، والأحاديث الرؤيا؛ لأن الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان. وتاويلها: عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها، ويجوز أن يراد بتاويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها، وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسله فيقال: قال الله، وقال الرسول كذا وكذا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فيأبى حديث بعده يؤمنون﴾ (١) ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ (٢) وهو: اسم جمع للحديث وليس بجمع أحسنه. ومعنى إتمام النعمة عليهم: أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة، وقيل: أتمها على إبراهيم بالخلة والإنجاء من النار ومن ذبح الولد، وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه، وقيل: علم يعقوب أن يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب، فلذلك قال: وعلى آل يعقوب، وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه، وقيل: كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ولما يرى فيه من المخايل، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه فتبالغ فيهم الحسد، وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب قال: هذا أمر مشئت يجمع الله لك بعد دهر طويل. ﴿وآل يعقوب﴾ أهله وهم نسله وغيرهم، وأصل آل: أهل بلبس تصغيره على أهيل إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبي، وآل الملك، ولا يقال آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلها. وأراد بالأبوين الجد وأبى الجد؛ لأنهم في حكم الأب في الأصلة ومن ثم يقولون: ابن فلان وإن كان بينه وبين فلان عدة ﴿إبراهيم وإسحاق﴾ عطف

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) قال أحمد: هذه تؤيد قراءة ابن مروان: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم بالنصب، وقد قال سيبويه فيها: أحببى ابن مروان في لحنه، أي: تمكن، وحيث تأييد بقراءة أمير المؤمنين كرم الله وجهه، فلا بد من التماس المجلل الصحيح لها، وليس ذلك ببعيد إن شاء الله، فنقول: لو قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، ونحن نحن على طريقة:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ونحو أنا أنا، وأنت أنت، لم يكن في فصاحته مقال، وقد علمت أن معنى: أنا أنا، أي: أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التي استغنى =

= عن نكرها، فلا بعد، والحالة هذه في حذف الخبر لمساواته المبتدأ، وعدم زيادته عليه لفظاً، وراحة من تكرار اللفظ بعينه، والسياق يرشد إلى المحنوف، وإذا كان كذلك، فقول القائلين: ﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾، ونحن معناه: ونحن نحن، ولكن استغفوا عن الخبر للسرا الذي نكرناه، فقولهم: ونحن، كلام تام بالتقدير المنكور، فلا غرو في وقوع الحال بعده، وهذا يحكم يجري في قوله: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فقله: هن، في حكم الكلام التام، والمراد: هؤلاء بناتي هن المشهورات، بالأوصاف الحميدة الظاهرة، وأصل الكلام: هن هن، فوقع الحال بعد التمام، والله أعلم.

ومنه: ذهب بعض أصابعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى أَنْ تَفْعَلُوا مَا يَحْصُلُ بِهِ غَرْضُكُمْ فَهَذَا هُوَ الرَّأْيِ. قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَيَّ يُوسُفَ وَإِنَّا لَمْ نَلْصَحْوَ ﴿١١﴾.

﴿مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا﴾ قرئ: بإظهار النونين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام، وتيمناً بكسر التاء مع الإدغام والمعنى: لَمْ تَخَافْنَا عَلَيْهِ وَنَحْنُ نُرِيدُ لَهُ الْخَيْرَ وَنَحْبَهُ وَنَشْفُقُ عَلَيْهِ وَمَا وَجَدْنَا فِي بَابِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ النَّصِيحَةِ وَالْمَقَّةِ، وَأَرَادُوا بِذَلِكَ لَمَّا عَزَمُوا عَلَى كَيْدِ يَوْسُفَ اسْتِنزَالَهُ عَلَى رَأْيِهِ وَعَادَتِهِ فِي حِفْظِهِ مِنْهُمْ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَحْسَنُ مِنْهُمْ بِمَا أَوْجِبُ أَنْ لَا يَأْمَنُ مِنْهُمْ عَلَيْهِ. أَرْسِلُهُ مَعَا عَدَا بَرِّعَ وَيَلْمَبُ وَإِنَّا لَمْ لِحْفَظُونَ ﴿١٧﴾.

﴿نَرْتَعُ﴾ تنسع في أكل الفواكه وغيرها، وأصل الرتعة الخصب والسعة، وقرئ: يرتع من ارتعى يرتعي. وقرئ: يرتع ويلعب بالياء، ويرتع من ارتع ماشيته، وقرأ العلاء بن سبيبة: يرتع بكسر العين، ويلعب بالرفع على الابتداء.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَجَازَ لَهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اللَّعِبَ؟ قُلْتُ: كَانَ لِعِبِهِمُ الْاسْتِبَاقُ وَالِانْتِزَالُ لِيَضْرَبُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِقَاتِلِ الْعَدُوِّ لَا لِلْهُوِّ بِلَيْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا زُهَيْبًا نَسْتَبِقُ﴾ (6) وَإِنَّمَا سَمَوْهُ لِعَبًا؛ لِأَنَّهُ فِي صُورَتِهِ ﴿لِيَحْرَنُنِي﴾ اللَّامُ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ (7) وَدَخَلُهَا أَحَدٌ مَا نَكَرَهُ سَبِيوِيهِ مِنْ سَبِيِ الْمَصَارِعَةِ.

قَالَ إِنِّي لِيَحْرَنُنِي أَنْ تَهَبُوا بِهِ وَأَخَاكَ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ عَوَّلُونَ ﴿١٣﴾.

اعتذر إليهم بشيئين (8) أحدهما: أَنْ ذَهَبَهُمْ بِهِ وَمَفَارِقَتَهُ إِيَّاهُ مِمَّا يَحْرَنُهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَصْبِرُ عَنْهُ سَاعَةً وَالثَّانِي: خَوْفُهُ عَلَيْهِ مِنْ عُدُوِّ الذُّنْبِ إِذَا غَفَلُوا عَنْهُ بِرَعِيهِمْ وَلِعِبِهِمْ وَأَقْبَلَ بِهِ اِهْتِمَامَهُمْ وَلَمْ تَصْنَقْ بِحِفْظِهِ عَنَابَتِهِمْ، وَقِيلَ: رَأَى فِي النَّوْمِ أَنَّ الذُّنْبَ قَدْ شَدَّ عَلَى يَوْسُفَ فَكَانَ يَحْزَرُهُ فَمَنْ ثَمَّ قَالَ ذَلِكَ فَلَقْنَاهُم الْعِلَّةَ، وَفِي امْتَالِهِمْ: الْبِلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ. وَقرئ: الذُّنْبُ بِالْهَمْزَةِ عَلَى الْأَصْلِ وَالتَّخْفِيفِ، وَقِيلَ: اسْتِثْقَاةٌ مِنْ تَذَاعَبَتِ الرِّيحُ إِذَا أَتَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذُّنْبُ وَنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿١٤﴾.

القسم محذوف تقديره والله ﴿لَنْ أَكُلَهُ الذُّنْبُ﴾ واللام موطئة للقسم وقوله: ﴿إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ جواب للقسم مجزئ عن جزء الشرط، والواو في ونحن عصبه أو الحال، حلفوا له لئن كان ما خافه من خطفه الذُّنْبُ أَخَاهُمْ

رضي الله عنه: ونحن عصبه بالنصب، وقيل: معناه ونحن نجتمع عصبه، وعن ابن الأنباري: هذا كما تقول العرب: إنما العامري عمته أي: يتعهد عمته.

أَقْبَلُوا يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحِلُّ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١٦﴾.

﴿اقتلوا يوسف﴾ من جملة ما حكي بعد قوله: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ (1) كَانَهُمْ أَطْبَقُوا عَلَى نَلِكِ إِلَّا مِنْ قَالٍ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يَوْسُفَ﴾ (2) وَقِيلَ: الْأَمْرُ بِالْقَتْلِ شَمْعُونَ، وَقِيلَ: دَانَ وَالْبَاقُونَ كَانُوا رَاضِينَ فَجَعَلُوا أَمْرَيْنِ ﴿أَرْضًا﴾ أَرْضًا مَنكُورَةً مَجْهُولَةٌ بَعِيدَةٌ مِنَ الْعَمْرَانَ وَهُوَ مَعْنَى تَنْكِيْرَهَا وَإِخْلَاطِهَا مِنَ الْوَصْفِ، وَإِلْهَامُهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ نَصَبَتْ نَصَبَ الظُّرُوفِ الْمَبْهَمَةِ ﴿يَخِلُّ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ يَقْبَلُ عَلَيْكُمْ إِقْبَالَةً وَاحِدَةً لَا يَلْتَفِتُ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ، وَالْمَرَادُ سَلَامَةُ مَحَبَّتِهِ لَهُمْ مِمَّنْ يَشَارِكُهُمْ فِيهَا وَيَنَازِعُهُمْ إِيَّاهُ، فَكَانَ نَكَرُ الْوَجْهِ لِتَصْوِيرِ مَعْنَى إِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِالْوَجْهِ: الذَّاتُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُوقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ (3) وَقِيلَ يَخِلُّ لَكُمْ يَفْرَغُ لَكُمْ مِنْ الشَّغْلِ بِيَوْسُفَ ﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾ مِنْ بَعْدِ يَوْسُفَ أَي: مِنْ بَعْدِ كِفَايَتِهِ بِالْقَتْلِ أَوْ التَّغْرِيْبِ، أَوْ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ إِلَى مَصْدَرِ اقْتُلُوا أَوْ اطْرَحُوا ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تَائِبِينَ إِلَى اللَّهِ مِمَّا جَنَيْتُمْ عَلَيْهِ، أَوْ يَصِلُ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَبِيكُمْ بِعِذْرِ تَهْمُونِهِ، أَوْ تَصِلُ نِيَابَتِكُمْ وَتَنْتَظِمُ أُمُورَكُمْ بَعْدَهُ يَخْلُو وَجْهَ أَبِيكُمْ، وَتَكُونُوا إِمَّا مَجْزُومٌ عَطْفًا عَلَى يَخِلُّ لَكُمْ أَوْ مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ أَنْ، وَالْوَاوُ بِمَعْنَى: مَعَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ (4).

قَالَ قَائِلٌ يَنْتَمُ لَا نَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُنِّ يَلْفَظُهُ بَعْضُ السِّيَّارَةِ إِنْ كَثُرَ فَعِلِينَ ﴿١٥﴾.

﴿قائل منهم﴾ هو: يهودا وكان أحسنهم فيه رأيا وهو: الذي قال: ﴿فلن أبرح الأرض﴾ (5). قال لهم: القتل عظيم ﴿القوة في غيبة الجب﴾ وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله قال المنخل:

إِنْ أَنَا يَوْمًا غَيْبَتْنِي غِيَابَتِي فَسَيَرُوا بِسِيرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ أَرَادَ غِيَابَةَ حَفْرَتِهِ الَّتِي يَفِنُ فِيهَا، وَقرئ: غِيَابَاتٌ عَلَى الْجَمْعِ، وَغِيَابَاتٌ بِالتَّشْدِيدِ، وَقَرَأَ الْجَحْدَرِيُّ: غَيْبَةٌ، وَالْجَبُّ الْبَيْتُ لَمْ تَطُورْ لِأَنَّ الْأَرْضَ تَجِبُّ جِبًّا لَا غَيْرَ ﴿يَلْتَقِطُهُ﴾ يَأْخُذُهُ بَعْضُ السِّيَّارَةِ: بَعْضُ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِي الطَّرِيقِ، وَقرئ: تَلْتَقِطُهُ بِالتَّاءِ عَلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ بَعْضَ السِّيَّارَةِ سَيَّارَةُ كَقَوْلِهِ:

كما شرقت صدر القناة من الدم

(1) سورة يوسف، الآية: 8.

(2) سورة يوسف، الآية: 10.

(3) سورة الرحمن، الآية: 27.

(4) سورة البقرة، الآية: 42.

(5) سورة يوسف، الآية: 80.

(6) سورة يوسف، الآية: 17.

(7) سورة النحل، الآية: 124.

(8) قال أحمد: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذُّنْبِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَظْنَةُ هَلَاكِهِ، وَأَمَّا حَزْنُهُ لِمَفَارِقَتِهِ رِيْمًا يَرْتَعُ، وَيَلْعَبُ، وَيَعُودُ سَالِمًا إِلَيْهِ عَمَّا قَلِيلٍ، فَأَمْرٌ سَهْلٌ، فَكَانَهُمْ لَمْ يَشْتَفِلُوا إِلَّا بِتَأْمِينِهِ، وَتَطْمِينِهِ مِنْ أَشَدِّ الْأَمْرَيْنِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم ولطول العهد المبطل للهيأت والأشكال، وذلك أنهم حين لخلوا عليه ممتارين فعرّفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ فقال: إنه ليخبرني هذا الجام انه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف، وكان يدينه بونكم، وأنكم انطلقتم به والقيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيكم: اكله الذئب، وبعموه بئمن بخس. ويجوز أن يتعلق وهم لا يشعرون بقوله: وأوحينا على أنا أنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له، وقرئ: لننبتنهم بالنون على أنه وعيد لهم، وقوله: وهم لا يشعرون متعلق بأوحينا لا غير.

وَمَا رَآبِئَهُمْ إِسْمَاءُ يَذُكَّرُ ۝١٦

وعن الحسن عشيًا على تصغير عشي يقال: لعيته عشيًا وعشيانًا وأصيلًا وأصيلانًا، ورواه ابن جني: عُشى بضم العين والقصر، وقال عشوا: من البكاء، وروي أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبي: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف بيكون وهم ظلمة، ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية، وروي^(١): أنه لما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما لكم؟ ولين يوسف؟

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِينَ وَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتِينَا فَارَكَّهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ۝١٧

﴿قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستيق﴾ أي نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان، كالانتضال والتناضل، والارتداء والترامي، وغير ذلك والمعنى: نتسابق في العدو، أو في الرمي وجاء في التفسير نتضل ﴿بمؤمن لنا﴾ بمصنق لنا ﴿ولو كنا صادقين﴾ ولو كنا عندك من أهل الصلح والثقة لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سبيّ الظن بنا غير واثق بقولنا.

وَمَا وَ عَلَى قَيْصِهِ يَدِي كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَبِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ۝١٨

﴿بدم كذب﴾ ذي كذب، أو وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه والزور بذاته، ونحوه.

فهنّ به جود وأنتم به بخل

وقرئ: كذبًا نصًا على الحال بمعنى: جاؤا به كاذبين ويجوز أن يكون مفعولاً له، وقرأت عائشة رضي الله عنها: كذب بالبدال غير المعجمة أي: كدر، وقيل: طرى، وقال ابن

من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذا لقوم خاسرون أي: هالكون ضعفًا وخورًا وعجزًا، أو مستحقون أن يهلكوا؛ لانه غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار وأن يقال: خسروهم الله ودمرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون. وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها.

فإن قلت: قد اعتذر إليهم بعدزين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟ قلت: هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرين فأعاروه أذاتًا صمًا ولم يعيؤا به.

قَلْبًا ذَهَبًا يَوْمَ رَجَعُوا أَنْ يَجْمَعُوا فِي غَيْبَتِ الْمَلِكِ وَأَرْحَمًا إِلَيْنَا لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٩

﴿أن يجعلوه﴾ مفعول أجمعوا من قولك: أجمع الأمر وأزمعه فأجمعوا أمركم. وقرئ: في غيابات الجب قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: بأرض الأرن، وقيل: بين مصر ومدين، وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب لما سحزوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وأخذوا يهينونه ويضربونه، وكلما استعاث بواحد منهم لم يفت: إلا بالإهانة والضرب حتى كانوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا ابتاه لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء! فقال يهودا: أما أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يديه، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوانه ربوا علي قميصي أتوارى به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويدتالوا به على أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا تؤنسك، وبلوه في البئر فلما بلغ نصحها القوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي فنالوه، فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم، فأرأوا أن يرضخوه ليقتلوه، فمنعهم يهودا، وكان يهودا يأتيه بالطعام ويروي: أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة، فلبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه ﴿وأوحينا إليه﴾ قيل: أوحى إليه في الصغر كما أوحى إلى يحيى وعيسى، وقيل: كان إذ كان ذاك مدركًا، وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة ﴿لتنبتنهم بأمرهم هذا﴾ وإنما أوحى إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة ويبشر بما يؤول إليه أمره، ومعناه: لتتخلصن مما أنت فيه، ولتحدثن إخوانك بما فعلوا بك ﴿وهم لا يشعرون﴾ إنك

(1) قال أحمد: وقواه على اتهامهم، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أولًا، وهو: أكل الذئب إياه، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم: ﴿وأخاف أن ياكله﴾

ليستقي للقوم ﴿يا بشري﴾ نادى البشرى كأنه يقول: تعالى فهذا من أوثق، وقرى: يا بشراي على إضافتها إلى نفسه وفي قراءة الحسن وغيره: يا بشري بالياء مكان الألف جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة وهي لغة للعرب مشهورة، سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي ومولاي، وعن نافع: يا بشراي بالسكون وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حده إلا أن يقصد الوقف. قيل: لما ألقى لولوه أي: أرسلها في الجب تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بسلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشراي ﴿هذا غلام﴾ وقيل: ذهب به فلما بنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به ﴿واسروه﴾ الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرقعة، وقيل: أخفوا أمره ووجد أنهم له في الجب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر، وعن ابن عباس: أن الضمير لإخوة يوسف وأنهم قالوا للرقعة: هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه و﴿بضاعة﴾ نصب على الحال أي: أخفوه متاعاً للتجارة والبضاعة ما يضع من المال للتجارة أي: قطع ﴿واش عليم بما يعملون﴾ لم يخف عليه أسرهم، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم، أو واش عليم بما يعمل إخوة يوسف بابيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

وَسَرَّهُ يَسْرِبُ بِحَسْرِ دَرَمٍ مَدُونٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ
الزَّاهِدِينَ ﴿١٦﴾.

﴿وشروه﴾ وباعوه ﴿بثمن بخس﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو زيف ناقص العيار ﴿دراهم﴾ لا ننانير ﴿معدودة﴾⁽³⁾ قليلة تعد عدداً ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون ويعدون ما دونها، وقيل للقليلة: معدودة؛ لأن الكثيرية يمتنع من عدّها لكثرتها، وعن ابن عباس: كانت عشرين درهماً، وعن السدي: اثنين وعشرين ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بم باعه؛ لأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن، ويجوز أن يكون معنى وشروه: واشتروه يعني: الرقعة من إخوته وكانوا فيه من الزاهدين؛ لأنهم اعتقدوا أنه أبق فاخافوا أن يخطروا بما لهم فيه، ويروى: أن إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يابق، وقوله: ﴿فيه﴾ ليس من صلة الزاهدين؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول. ألا تراك لا تقول: وكانوا زيّداً من

جني: أصله من الكذب وهو: الفوف البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنه دم قد أثر في قميصه. روي: أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزلّ عنهم أن يمزقوه، وروي: أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رأيت كالسيوم نذباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه، وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان ليلياً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ولبليلاً على براءة يوسف حين قد من ببر.

فإن قلت: ﴿على قميصه﴾ ما محله؟ قلت: محله النصب على الظرف كأنه قيل: وجاؤا فوق قميصه بدم كما تقول: جاء على جماله بأحمال.

فإن قلت: هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة؟ قلت: لا؛ لأن حال المجرور لا تتقدم عليه ﴿سؤلت﴾ سهلت من السؤل وهو: الاسترخاء أي سهلت ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهونته في أعينكم، استدّل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص، أو أوحى إليه بأنهم قصوده ﴿فصبر جميل﴾ خبر أو مبتدأ لكونه موصوفاً، أي: فأمرني صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أبي: فصبراً جميلاً، والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع أنه الذي لا شكوى فيه⁽¹⁾، ومعناه: لا شكوى فيه إلى الخلق إلا ترى إلى قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾⁽²⁾ وقيل: لا أعايشكم على كآبة الوجه بل أكون لكم كما كنت، وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصاة، فقال له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: يا رب خطيئة فاغفرها لي ﴿واش المستعان﴾ أي: استعنيته ﴿على﴾ احتمال ﴿ما تصفون﴾ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبْنَئِي هَذَا عَلْمٌ
وَأَسْرُهُ يَضْمَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾.

﴿وجاءت سيارة﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب، فأخطاوا الطريق، فنزلوا قريباً منه، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقي فيه يوسف ﴿فأرسلوا﴾ رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء. والوارد الذي يرد الماء

(1) نكره الطبري في تفسيره.

(2) سورة يوسف، الآية: 86.

(3) قال أحمد: ومن التعبير عن القلة بالعدد، الدعوة الماثورة على الكفرة: اللهم أحصهم عدداً، واستاصلهم بدءاً، ولا تبق منهم أحداً، فالمدعو به، وإن كان إحصاؤهم عدداً في الظاهر، إلا أن هذا ليس =

= مراداً، لأن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً، وأحاط به علماً، فلا بد من مقصود وراء ذلك، وهو لازم العدد، وذلك القلة فلما كان كل قليل معدوداً، وكل كثير غير معدود، دعى عليهم بالقلة، وعبر عنها بلازمها، وهو: الإحصاء، والله أعلم.

الضاربين، وإنما هو: بيان، كانه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا فيه.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

﴿الذي اشتراه﴾ قيل: هو قطفير، أو أطفير، وهو: العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف، ومات في حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى. واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمئة سنة بديل قوله: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾⁽¹⁾. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وقيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين، وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً فابتاعه قطفير بذلك المبلغ ﴿أكرمي مثواه﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً أي: حسناً مرضياً بديل قوله: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾⁽²⁾ والمراد: تفقدته بالإحسان وتعهد به بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا، ويقال للرجل: كيف أبو مثوك وأم مثوك؟ لمن ينزل به من رجل أو امرأة يراد: هل تطيب نفسك بثوانك عنده؟ وهل يراعي حق نزولك به؟ واللام في لامرأته متعلقة بقال لا باشتراه ﴿عسى أن ينفعنا﴾ لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله فينفعنا فيه بكفائته وأمانته، أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير غنياً لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشيد فقال ذلك، وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا﴾ والمرأة: التي أتت موسى وقالت لبيها: ﴿يا أبت استاجره﴾⁽³⁾ وأبو بكر: حين استخلف عمر رضي الله عنهما. وروي أنه سأله عن نفسه فأخبره بنسبه فعرفه ﴿وكنلك﴾ الإشارة إلى ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه. والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مكناً﴾ له، أي: كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز، كذلك مكننا له في أرض مصر وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين؛ لأن غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من

علم وعمل ﴿وآاه غالب على أمره﴾ على أمر نفسه، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي، أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الأمر كله بيد الله.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾

قيل في الأشد: ثماني عشر سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل: أقصاه ثنتان وستون ﴿حكماً﴾ حكمة وهو: العلم بالعمل واجتنب ما يجهل فيه، وقيل: حكماً بين الناس وفقهاً ﴿وكنلك نجزي للمحسنين﴾ تنبيه على أنه كان محسناً في عمله متقياً في عنفوان أمره، وإن الله آتاه الحكم والعلم جزاءً على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شببته آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

وَرَوَّعْتُهُ أَنِّي هُوَ فِي بَيْتِهِا عَن نَّفْسِهِ وَعَلَّقْتَ الْأُذُنَ وَقَالَتَ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٨﴾

المراد: مفاعلة من راد يرود: إذا جاء وذهب كان المعنى: خادعته عن نفسه أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقفته إياها ﴿وعلقت الأذون﴾ قيل: كانت سبعة قرى: هيت بفتح الهاء وكسرهما مع فتح التاء وبتاؤه كبناء ابن وعيط، وهيت كجبر، وهيت كحيث، وهتت بمعنى: تهيأت يقال: هاء يهيه كجاء يجيء، إذا تهيأ وهيت لك، واللام من صلة الفعل. وأما في الأصوات فلبيان كانه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك ﴿معاذ الله﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿إنه﴾ إن الشأن والحديث ﴿ربي﴾ سيدي ومالكي يريد قطفير ﴿أحسن مثواي﴾ حين قال لك: أكرمي مثواه، فما جزاؤه أن خلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ الذين يجازون الحسن بالسوء، وقيل: أراد الزناة؛ لأنهم ظالمون أنفسهم، وقيل: أراد الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرُءُوسِهِمْ لَوْلَا أَنَّ رَمَّا بُرْهَنَ رَبُّهُ كَذَلِكَ لَيَصْرِفُنَّ عَنْهُ الشُّرَكَاءَ أَلْفَحَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾

هم بالامر إذا قصد عزم عليه قال: هممت ولم أفلح وكنت وليتني تركت على عثمان تبكي حالته ومنه قولك: لا أفلح ذلك ولا كيداً ولا همّاً أي: ولا أكاد أن أفلح كيداً، ولا أهم بفعله همّاً حكاة سيبويه، ومنه الهمام وهو: الذي إذا همّ بأمر أمضاه ولم يتكل عليه،

(3) سورة القصص، الآية: 26.

(1) سورة غافر، الآية: 34.

(2) سورة يوسف، الآية: 23.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ معناه: ولقد همت بمخالطته ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وهَمَّ بمخالطتها ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها فحنف؛ لأن قوله: وهَمَّ بها يدل عليه كقولك: هممت بقتله لولا أنني خفت الله؛ معناه: لو أنني خفت الله لقتلته.

فإن قُلْتُ: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟ قُلْتُ: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمَّ به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًا لشدته لما كان صاحبه ممنوحًا عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهدهمه عن عزيمة لما مدحه الله بانه من عباده المخلصين، ويجوز أن يريد بقوله وهَمَّ بها: وشارف أن يهم بها كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله يريد: مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه.

فإن قُلْتُ: قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ داخل تحت حكم القسم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ أم هو خارج منه؟ قُلْتُ: الأمران جائزان، ومن حق القاري: إذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلامًا برأسه أن يقف على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ويبتدئ قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وفيه أيضًا إشعار بالفرق بين الهمين.

فإن قُلْتُ: لم جعلت جواب لولا محذوفًا يدل عليه همَّ بها وهلا جعلته هو الجواب مقدمًا؟ قُلْتُ: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها من قبل أنه في حكم الشرط وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيز من الجملة مثل كلمة واحدة ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز.

فإن قُلْتُ: فلم جعلت لولا متعلقة بهمَّ بها وحده؟ ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ لأن الهمَّ لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني، فلا بد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من إثنين معًا فكانه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟ قُلْتُ: نعم ما قلت، ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ فكان إغفاله إغفاء له، فوجب أن يكون التقدير ولقد همت بمخالطته وهَمَّ بمخالطتها على أن المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه وتوصله إلى ما هو حظها من قضاء شهوته منها، لولا أن رأى برهان ربه فترك التوصل إلى حظها من الشهوة، فلذلك كانت لولا حقيقة بأن تعلق بهمَّ بها وحده، وقد فسر همَّ يوسف بأنه حل الهميمان وجلس منها مجلس الجامع وبأنه حل تسكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها، وفسر البرهان بأنه سمع

صوتًا: إياك وإياها، فلم يكثر له فسمعه ثانيًا فلم يعمل به فسمع ثالثًا أعرض عنها فلم ينجح فيه حتى مثل له يعقوب عاضًا على أئمنته، وقيل: ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدًا إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولدًا من أجل ما نقص من شهوته حين همَّ وقيل: صحب به: يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنا قعد لا ريش له، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها، وإن عليكم لحافظين كرامًا كاتبين فلم ينصرف، ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً فلم ينته، ثم رأى فيها، واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله فلم ينجح فيه فقال الله لجبريل عليه السلام: أترك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل، وهو يقول: يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في بيوان الأنبياء، وقيل: رأى تمثال العزيز، وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحي منه أن يرانا، فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع البصير العليم بنوات الصلور. وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أنى زلة لنعيت عليه ونكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم زلته وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون ونكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثني عليه وسمي مخلصًا فعلم بالقطع أنه ثبت في تلك المقام المحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم ناظرًا في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صق في الآخرين كما جعله لجهه الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبيت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية، وفي حل تكته للوقوع عليها، وفي أن ينهيه ربه ثلاث كرات، ويصاح به من عنده ثلاث صحبات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه وهو جائم في مريضه لا يتحلل ولا ينتهي ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره، ولو أن أوقح الزناة وأشطهم وأحدهم حدقة وأجلحهم وجهًا لقي بآدنى ما لقي به نبي الله مما تكروا لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك، فيا له من مذهب ما أقحشه ومن ضلال ما أبينه ﴿كذلك﴾ الكاف منصوب المحل أي: مثل تلك التثبيت ثبتنا، أو مرفوعه أي: الأمر مثل ذلك ﴿لنصرف عنه السوء﴾ من خيانة السيد ﴿والفحشاء﴾ من الزنا ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح الذين

يفعل ما أمره ليسجنن⁽⁴⁾ وما أنا فيه أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن كما تقول: من في الدار إلا زيد.

فإن قُلْتَ: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف وإنه أراد بها سوءاً؟ قُلْتَ⁽⁵⁾: قصدت العموم وأن كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب؛ لأن ذلك أبلغ فيما قصته من تخويف يوسف. وقيل: العذاب الأليم الضرب بالسياط، ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال: ﴿هي راوئني عن نفسي﴾ ولولا ذلك لكتم عليها ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل: كان ابن عم لها، وإنما القى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه، وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب، وقيل: كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضب الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق، وقيل: كان ابن خال لها صبياً في المهدي. وعن النبي ﷺ: «تكم أربعة وهم صغار، ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى»⁽⁶⁾.

فإن قُلْتَ⁽⁷⁾: لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ قُلْتَ: لما أتى مؤدى الشهادة في ﴿إن﴾ ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمي شهادة.

فإن قُلْتَ: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ قُلْتَ: لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كانه قيل: وشهد شاهد، فقال: إن كان قميصه.

فإن قُلْتَ: إن دل قد قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتذبت ثوبه إليها فقنته، فمن أين دل قده من قبل على أنها صادقة وأنه كان تابعها؟ قُلْتَ: من وجهين: أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قنت قميصه من قدامه بالدفع، والثاني⁽⁸⁾: أن يسرع خلفها

أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم، ويجوز أن يريد بالسوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بشهوة ونحو ذلك وقوله: ﴿من عباننا﴾ معناه: بعض عباننا أي: هو مخلص من جملة المخلصين، أو هو ناشئ منهم؛ لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾⁽¹⁾.

وَأَسْتَبِقَا أَبَابَ وَذَتَّ فَيَصِمُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سِدِّدَا لَدَا أَبَابَ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَّدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ فَيَصِمُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِنْ كَانَ فَيَصِمُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا رَأَى فَيَصِمُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَاذِبِينَ إِنْ كِيدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٥٨﴾.

﴿واستبقا الباب﴾ وتسبقا إلى الباب على حذف الجار وليصل الفعل كقوله: ﴿اختار موسى قومه﴾⁽²⁾ على تضمين استبقا معنى: ابتدرا، نفر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرع وراءه لتمنعه الخروج.

فإن قُلْتَ: كيف وحد الباب وقد جمعه في قوله: ﴿وغلقت الأبواب﴾⁽³⁾؟ قُلْتَ: أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى كعب: أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿وقدت قميصه من نبر﴾ اجتذبت من خلفه فانقذ أي: انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه ﴿والغيا سيدها﴾ وصادفا بعلمها وهو قطفير؛ تقول المرأة لبعلمها سيدي، وقيل: إنما لم يقل سيدهما؛ لأن ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيداً له على الحقيقة قيل: الغيا مقبلاً يريد أن يدخل، وقيل: جالساً مع ابن عم للمرأة. لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة وهي مغتابة على يوسف إذ لم يؤاتها، جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف وتخويفه طمعاً في أن يؤاتها خيفة منها ومن مكرها وكرهاً لما أيسر من مؤاتات طوعاً، الا ترى إلى قولها: ﴿لئن لم

(6) رواه الحاكم في المستدرک (497/2)، وابن حبان في كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب الأمراض (الحديث رقم: 2904)، وأحمد في مسنده 310/1، والبيهقي في «شعب الإيمان» (الحديث رقم: 1636).

(7) قال أحمد: مهما قدره من ذلك في اتباعه لها، يحتمل مثله في اتباعه لها، فإنها إنما تقد قميصه من قبل، بتقدير أن يكون اجتذبتها، حتى صارا متقابلين، فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل، إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبت، حتى صارا متقابلين، ثم جذبت قميصه إليها من قبل، بل ههنا أظهر؛ لأن الموجب لقد القميص غالباً الجذب، لا الدفع.

(8) قال أحمد: وهذا بعينه محتمل، لو كانت هي التابعة، وهو فار منها، فانقد قميصه في إسراعه للفرار، والله أعلم. فليس كلام الزمخشري في هذا الفصل بذاك، والحق والله ولي التوفيق: أن الشاهد المذكور إن كان صبياً في المهدي، كما ورد في بعض

(1) سورة ص، الآية: 46.

(2) سورة الاعراف، الآية: 155.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

(4) سورة يوسف، الآية: 32.

(5) قال أحمد: أو أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلمها: هذا أراد بي سوءاً، ولذلك أيضاً كنت بالسوء عما أضمرت من الهناة مبالغة في المكر والكيد، وإبعاداً للتهمة عنها بتوقي ما يشعر منها بالتبرج والقحة، وعلى الضد من مقصودها، ولأن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمال، قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها، قالت: ﴿إحداهما يا أبت استاجرته، إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾، ولم تقل إنه قوي أمين حياء من التعيين وحشمة وخفراً، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء، وامرأة العزيز إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال، لذلك الغرض الفاسد من المكر، والله أعلم.

الْمَخَاطِبِينَ ﴿١٨﴾.

﴿يوسف﴾ حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب فإفطن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحلله ﴿اعرض عن هذا﴾ الأمر واكتمه ولا تحدّث به ﴿واستغفري﴾ أنت ﴿لننكب إنك كنت من الخاطئين﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنوب يقال: خطئ إذا أتنب متعمداً، وإنما قال: من الخاطئين بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث وما كان العزيز إلا رجلاً حليماً. وروي أنه كان قليل الغيرة.

﴿وَقَالَ يَسُوَّةٌ فِي الْمَدِينَةِ أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وقال نسوة﴾ وقال: جماعة من النساء وكنّ خمساً: امرأة الساقى، وأمرأة الخباز، وأمرأة صاحب الدواب، وأمرأة صاحب السجن، وأمرأة الحاجب، والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتانيته غير حقيقي كتانيث اللمة، ولذلك لم تلحق فعله تاء التانيث، وفيه لغتان كسر النون وضمها ﴿في المدينة﴾ في مصر ﴿امرات العزيز﴾ يردن قطيفر والعزير الملك بلسان العرب ﴿فتاها﴾ غلامها يقال: فتاي وفتاتي أي: غلامي وجاريتي ﴿شغفها﴾ خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، والشغاف حجاب القلب، وقيل جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب قال النابغة:

وقد حال هم بون نلك والسج مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

ليلحقها فيتعثّر في مقام قميصه فيشقه، وقرئ: من قبل ومن دبر بالضم على مذهب الغايات، والمعنى: من قبل القميص ومن دبره، وأما التذكير، فمعناه: من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها: دبر، وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: من قبل ومن دبر بالفتح، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتانيث، وقرئنا: بسكون العين.

فإن قلّت: كيف جاز الجمع بين إن الذي هو للاستقبال، وبين كان؟ لأنّ المعنى: أن يعلم أنه كان قميصه قدّ، ونحوه كقولك: إن أحسنت إلي فقد أحسنت إليك من قبل لمن يمتن عليك بإحسانه؛ تريد: إن تمتن عليّ امتنّ عليك ﴿فلما رأى﴾ يعني: قطفير، وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿قال إنه﴾^(١) إن قولك: ما جزاء من أراد باهلك سوءاً، أو أن هذا الأمر وهو طمعها في يوسف ﴿من كيدكن﴾ الخطاب لها ولأمتها. وإنما استعظم كيد النساء؛ لأنه وإن كان في الرجال إلا أنّ النساء اللطف كيداً وأنفذ حيلة ولهنّ في ذلك نيقة ورفق وبذلك يغلبن الرجال. ومنه قوله تعالى: ﴿ومن شرّ النفثات في العقد﴾^(٢) والقصريات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق، وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾^(٣) وقال للنساء: ﴿إنّ كيدكنّ عظيم﴾.

يُوشِفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَمَرَّى لِذُنُوبِكِ إِنَّكَ كُنْتِ مِنْ

الامارة الآخرة فقط، والمناسبة فيها محققة، وأما الامارة الاولى، فليست مقصودة، وإنما نكرها توطئة كما تقدّم، فلم يلتبس لها منسبة جليلة صحيحة على اليقين، وإنما هي كالفرض والتقدير، والله أعلم، وكأنه قال: إن كان قميصه قدّ من قبل، فهي صانقة، لكنه يعلم انتفاء الامارة المذكورة، فعلق صدقها على محال، وهو وجود قدّه من قبل حالة عدمه، فهذا التقرير هو الصواب، والحق اللباب، والله الموفق. وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشير به، كما ورد في بعض التفاسير، فلا بدّ من التماس المناسبة في الطرفين؛ لأنها عهدة الحكيم، وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من دبر لليل على إنباره عنها، وقدّه من قبل لليل على إقباله عليها بوجه، والله أعلم.

(1) قال احمد: وفيما قاله هذا العالم، نظراً لأنّ الآية التي نكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى، غير محكى، وأما هذه الآية، فكيد النساء فيها من قول العزيز، ولكن حكاها الله تعالى عنه، فيحتمل حكايتها عن أن يكون تصحيحاً له، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه، وايضاً فإن كيد الشيطان مذكور في الآية، مقابل كيد الله تعالى، فكان ضعيفاً بالنسبة إليه الا ترى أول الآية ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ وايضاً فإنّ الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهنّ، مستغفان من الشيطان، بوسوسته وتسويله، شواهد الشرع قائمة على ذلك، فلا يتصور حينئذ، أن يكون كيدهنّ اعظم من كيده، والله أعلم.

(2) سورة الفلق، الآية: 4 .

(3) سورة النساء، الآية: 76 .

الحديث، فالآية في مجرّد كلامه قبل أو انه حتى لو قال: صدق يوسف، وكذبت، لكفى برهاناً على صدقه عليه السلام، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في العهد، برهاناً على صدق مريم، فلا تبقى المناسبة بين الامارة المنصوبة وما رتب عليها؛ لأنّ العمدة في الدلالة نصيبها لا مناسبتها، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان في الدار، فيبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له، وإقامة الحق كما نكر الزمخشري، فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى، فيصدق يوسف، ويكذبها، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر، فنصبه أمانة لصدقها، وكذبها، ثم نكر القسم الآخر، وهو: قدّه من قبل، على علم بأنه لم ينقد من قبل، حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة، وقصد الفضيحة، وينصفهما جميعاً، فينكر أمانة على صدقها المعلوم، نفيه كما نكر أمانة على صدقه المعلوم وجوده، ومن ثم قدم أمانة صدقها على أمانة صدقه في النكر إزاحة للتهمة، ووثوقاً بأن الامارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها، وهذه اللطيفة بعينها، والله أعلم هو التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله: وإن يك كاتباً فعلي كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، فقدّم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تنطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقاً بأن القسم الثاني، وهو: صدقه، هو الواقع، فلا يضره تأخيرها في الذكر لهذه الفائدة، ومن ثم قال: بعض الذي يعدكم، ولم يقل: كل ما يعدكم، تعريضاً بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يخسره حقه، وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه؛ لأنه لو بدأ به، لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه، والله أعلم، فقصد هذا الشاهد =

وقرى شعفها بالعين من شعف البعير إذا هناه فأحرقه بالقطران قال:

كما شعف المهنوءة الرجل الطالبي

و﴿حَبَابًا﴾ نصب على التمييز ﴿في ضلال مبين﴾ في خطأ وبعد عن طريق الصواب.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَأَنْتَ كُلَّ وَجِدٍ
يَهِنَّ يَكِينًا وَقَالَتْ إِنَّهُنَّ عَلَىٰ ظُلْمٍ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ
حَسْبُ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾.

﴿بمكرهن﴾ باغتيالهن، وسوء قائلتهن، وقولهن: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها، وسمي الاغتيال مكرًا لأنه في خفية وحال غيبية كما يخفي الماكر مكره، وقيل: كانت استكتمتهن سرها فأفشينه عليها ﴿أرسلت إليهن﴾ دعتهن، قيل: دعت أربعين امرأة منهن الخمس المنكورات ﴿واعتدت لهن متكًا﴾ ما يتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي: قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها؛ لأن المتكى إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهن فتضع الحناجر في أيديهن ليقطعن أيديهن فتبكتهن بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهن الخناجر توهمه أنهن يثبن عليه، وقيل: متكًا مجلس طعام؛ لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهي «أن ياكل الرجل متكًا»⁽¹⁾، وآتتهن السكاكين ليعالجن بها ما ياكلن، وقيل: متكًا طعامًا من قولك: اتكأنا عند فلان طعمنا على سبيل الكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك تخنت له تكأة يتكى عليها. قال جميل:

فظلنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد: متكًا طعامًا يحز حراً كان المعنى: يعتمد بالسكين؛ لأن القاطع يتكى على المقطوع بالسكين. وقرى: متكًا بغير همز، وعن الحسن: متكاء بالمد كأنه مفتعل وذلك لإشباع فتحة الكاف كقوله: بمنزج بمعنى: بمنزج، ونحوه ينباع بمعنى: ينبع وقرى: متكًا وهو: الأترج وأنشد: فاهدت متكة لبني أبيها تخب بها العثمثة⁽²⁾ الوقاح وكانت أهدت أترجة على ناقة، وكانها الأترجة التي نكرها أبو داود في سننه: أنها شقت بنصفين، وحملها كالعديلين على جمل وقيل: الزماورد، وعن وهب أترجًا ومورًا وبطيخًا وقيل: اعتدت لهن ما يقطع من متك الشيء معنى: بتكها إذا

قطعه وقرأ الأعرج: متكًا مفعلاً من تكى يتكا إذا اتكا ﴿أكبرته﴾ أعظمته وهين ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء، وعن النبي ﷺ: «مرت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال: يوسف. فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ قال: «كالقمر ليلة البدر»⁽³⁾، وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلالؤ وجهه على الجيزان كما يرى نور الشمس من الماء عليها، وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف، وقيل: كان يشبه أم يوم خلقه ربه، وقيل: ورث الجمال من جدته سارة، وقيل: أكبرن بمعنى: حضن، والهاء للسكت. يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته دخلت في الكبر؛ لأنها بالحض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر، وكان أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خف الله وأستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخبور العواقب
﴿قطعن أيديهن﴾ جرحنها كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي تريد: جرحتها. حاشا كلمة تفيد معنى: التنزيه في باب الاستثناء تقول: أساء القوم حاشا زيد قال:

حاشا أبي ثوبان إن به ضنا عن الملحاة والشتم

وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة بمعنى: حاشا الله براءة الله وتنزيهه الله، وهي قراءة ابن مسعود على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة، ومن قرأ: حاشا لله فنحو قولك سقيًا لك، كأنه قال: براءة، ثم قال: لله لبيان من يبرأ وينزهه، والليل على تنزيل حاشا منزلة المصدر قراءة أبي السمال: حاشا لله بالتنوين، وقراءة أبي عمرو: حاش لله بحذف الألف الآخرة، وقراءة الأعمش: حاشا لله بحذف الألف الأولى، وقرى: حاش لله بسكون الشين على أن الفتحة تبعث الألف في الإسقاط، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حد، وقرى: حاشا الإله.

فإن قلت: فلم جاز في حاشا لله أن لا ينون بعد إجرائه مجرى براءة لله؟ قلت: مراعاة لأصله الذي هو الحرفية ألا ترى إلى قولهم: جلست من عن يمينه، كيف تركوا عن غير معرب على أصله، وعلى في قوله: غدت من عليه، منقلب الألف إلى الياء مع الضمير والمعنى: تنزيهه الله تعالى من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله، وأما قوله: ﴿حاشا لله ما علمنا عليه من سوء﴾⁽⁴⁾ فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ما هذا بشراً﴾ فبين عنه البشرية⁽⁵⁾ لغرابة جماله ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

(5) قال أحمد: تقدم القول في مسألة التفضيل شافياً، والزمخشري لا يدعه التعصب للمعتقد الفاسد، إن يحمله على مثل هذه المشافهات، يرمي بها أهل الحق، فينسب إليهم الإيجاب، والخسار، والمكابرة في الضروريات، وجدد الحقائق تعكيساً، وهذا كله هم براء منه، وحسبه من العقابلة بذلك، خطؤه في اعتقاد تفضيل =

(1) روي في «كشف الاستار»، كتاب: الأطعمة، باب: النهي عن الأكل متكًا (الحديث رقم: 2870).

(2) العثمثة: الشديدة.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 4/606.

(4) سورة يوسف، الآية: 52.

ألفاً على حكم الوقف وذلك لا يكون إلا في الخفيفة.

قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبَّ إِلَيَّ وَمَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا صَرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبَ إِلَيْهِنَّ وَأَكْنَ مِنَّ لَبِئْسَاتٍ ﴿٣٦﴾.

وقرىء السجن بالفتح على المصدر وقال: **﴿يدعونني﴾** على إسناد الدعوة إليهن جميعاً؛ لأنهن تنصحن له وزين له مطاوعتها وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: ربّ نزول السجن أحبّ إليّ من ركوب المعصية.

فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟ **قلت:** كانت أحبّ إليه وأثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهما **﴿وإلا تصرف عني كيدهن﴾** فزع منه إلى الطاف الله وعصمته كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإيجاب على التعفف والإلجاء إليه **﴿أصب إليهن﴾** أمل إليهن، والصبوة: الميل إلى الهوى ومنها الصبا؛ لأنّ النفوس تصبوا إليها لطيب نسيماها وروحها، وقرىء: **﴿أصب إليهن من الصبابة﴾** **﴿من الجاهليين﴾** من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء، أو من السفهاء؛ لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح.

فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٧﴾.

وإنما نكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء؛ لأنّ قوله: **﴿وإلا تصرف عني﴾** فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللفظ **﴿السميع﴾** لدعوات الملتجئين إليه **﴿العليم﴾** بأحوالهم وما يصلحهم.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَحْكُمَ حَقَّ حُكْمٍ ﴿٣٨﴾.

﴿بدا لهم﴾ فاعله مضمّر لدلالة ما يفسره عليه وهو **﴿ليسجننهم﴾** والمعنى: بدأ لهم بدءاً أي: ظهر لهم رأي ليسجننهم والضمير في لهم للعزيز وأهله **﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾** وهي: الشواهد على براءته وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وقتلها منه في الذروة والغارب وكان مطاوعة لها وجميلاً نولاً زمامه في يدها حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه، وإلحاق

الصور وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة إلا ما عليه الفئة الخاسئة المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكسهم للحقائق وجودهم للعلوم الضرورية ومكابرتهم في كل باب وإعمال ما عمل ليس هي اللغة القدي الحجازية، وبها ورد القرآن ومنها قوله تعالى: **﴿ما هن أمهاتهم﴾** (1) ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ: بشر بالرفع وهي: في قراءة ابن مسعود، وقرىء: ما هذا بشري أي: ما هو بعبد مملوك لثيم **﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾** تقول: هذا بشري أي: حاصل بشري بمعنى: هذا مشرى، وتقول: هذا لك بشري أم بكري؟ والقراءة هي الأولى لموافقها المصحف ومطابقة بشر لملك.

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُتْنَتَنِي فِيهِ وَكَذَّبْتَهُنَّ عَن نَّبِيِّهِنَّ فَاسْتَعَمَّوْهُنَّ وَلَكِنَّ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرُوا لِيُجَسَّسَ وَلِيَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿قالت فذلكن﴾ (2) ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به ورباً بحاله واستبعاداً لمحلّه، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن: عشقت عبدها الكنعاني، تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه؛ تعني: أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتتان به. الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها، ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب، وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أبرر منه على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهمم والبرهان.

فإن قلت: الإضمير في **﴿أمره﴾** راجع إلى الموصول أم إلى يوسف؟ **قلت:** بل إلى الموصول والمعنى: ما أمر به فحذف الجار في قولك: امرتك الخير ويجوز أن تجعل ما مصدرية فيرجع إلى يوسف ومعناه: ولئن لم يفعل أمري إياه أي موجب أمري ومقتضاه. قرىء: وليكونا بالتشديد، والتخفيف، والتخفيف أولى؛ لأنّ النون كتبت في المصحف

(1) سورة المجادلة، الآية: 2.

(2) قال أحمد: وبهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أول البقرة: **﴿الم تلك الكتاب﴾** لما جعل الإشارة إلى الحروف المنكورة، فقال: إن قلت: كيف أشار إليها وهي قريبة، كما يشار إلى البعيد؛ وأجاب: هو بأن كل متقضى بعيد، وأجبت انا: بأن الإشارة بذلك، إلى بعد منزلة هذا الكتاب، بالنسبة إلى كتب الله تعالى.

الملك عند قائله ليس ضرورياً، ولا عقلياً نظرياً، ولكن سمعياً، وقد قنع في الاستدلال على هذه العقيدة، بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق، وخصوصاً الكلام في طباع النساء القائلات: ما هذا بشراً، وإذا كان كل مركوز في الطباع حقاً، فما ركز فيها حب الشهوات، وإيثار العاجلة، وجميع أمهات الذنوب مركوز في الطباع، أفىكون ذلك حقاً، إلا عند ناظر بعين الهوى، أعشى في سبيل الهدى؛ والله ولي التوفيق.

ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة وإذا سباع الطير تنهش منها.

فإن قُلْتُ: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿نَبئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾؟ قُلْتُ: إلى ما قصا عليه، والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقُونَ إِلَّا نَسَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ ذَلِكَ مِمَّا عَلَيْنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَيْتُ مِلَّةَ مَا بَاءَ إِزْمِيرٍ وَسَحَقٍ رَمَعُورٍ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَنَحْلُ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾.

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترض لك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما ويقول: اليوم يأتكما طعام من صفة كيت وكيت فيجداه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن ينكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفثاه واحد منهم، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه: أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ورضه أن يقبس منه وينتفع به في الدين لم يكن من باب التزكية ﴿بتأويله﴾ ببيان ماهيته وكيفيته؛ لأن ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿تلكما﴾ إشارة لهما إلى التأويل أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿مما علمني ربي﴾ وأوحى به إليّ ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿إني تركت﴾ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، أو أن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علمني ذلك وأوحى إليّ، لاني رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهي: الملة الحنيفية، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون أهل مصر ومن كان الفتیان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرين بالآخرة وأن غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها، وهم الذين على ملة إبراهيم ولتوكيد كفرهم بالجزء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبوها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته، وأن ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزء، وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما نكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله: ﴿ما كان لنا﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء ﴿أن نشرك بالله﴾ أي شيء كان من ملك، أو جنني، أو إنسي، فضلاً أن نشرك به صنفاً لا يسمع ولا يبصر ثم قال: ﴿ذلك﴾ التوحيد ﴿ومن فضل الله علينا

الصفار به كما أوعده به، وذلك لما أبست من طاعته لها أو لطمعها في أن يذلل السجن ويسخره لها، وفي قراءة الحسن: لتسجنه بالتاء على الخطاب خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم ﴿حتى حين﴾ إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه، وفي قراءة ابن مسعود: عتي حين وهي لغة هذيل، وعن عمر رضي الله عنه: أنه سمع رجلاً يقرأ عتي حين فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود. فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً وأنزله بلغة قريش، فاقري الناس بلغة قريش، ولا تقرنهم بلغة هذيل. والسلام.

وَدَعَلَ مَمَّةُ النَّبِئْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَمَدُهُمَا إِنِّي أَرَيْتُ خَمْرًا حَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَيْتُ أَحْمِلُ قَوْقُ رَأْسِي خَمْرًا نَأْكُلُ الْكَلْبُ مِنْهُ يَنْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَزَلْنَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٩﴾.

مع: يدل على معنى الصحبة واستحداثها تقول: خرجت مع الأمير تريد: مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿فتيان﴾ عبدان للملك خبازه وشرابيه، رقي إليهما أنهما يسمانه فامر بهما إلى السجن فأنخلا السجن ساعة أدخل يوسف عليه السلام ﴿إني أراني﴾ يعني: في المنام وهي حكاية حال ماضية ﴿أعصر خمرًا﴾ يعني: عنباً تسمية للعنب بما يؤل إليه، وقيل: الخمر بلغة عمان اسم للعنب، وفي قراءة ابن مسعود: أعصر عنباً ﴿من المحسنين﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا أي: يجيدونها، رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له فقالا له ذلك، أو من العلماء لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فأحسن إلينا: بأن تفرج عنا العمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا. روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاق أوسع له، وإذا احتاج جمع له، وعن قتادة: كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم، وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا أصبروا توجروا إن لهذا لأجراً، فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن نبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خلّيت سبيلك ولكني أحسن جوارك فكن في أي بيوت السجن شئت. وروي أن الفتيين قالوا له: إنا لنحك من حين رأيناك، فقال: أنشكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا نخل عليّ من حبه بلاء. لقد أحببني عمتي فدخل عليّ من حبه بلاء، ثم أحببني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء، فلا ثم أحببني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبه بلاء، فلا تحباني بارك الله فيكما. وعن الشعبي: أنهما تحالما ليمتحناه، فقال الشرابي: إني أراني في بستان فإذا باصل حبله عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته، وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي

﴿وَأَمَّا أَحَدُكُمْ﴾ يريد الشرابي ﴿فيسقي ربه﴾ سيده، وقرأ عكرمة: فيسقي ربه أي يسقي ما يروي به على البناء للمفعول، روي أنه قال للأول: ما رأيت من الكرامة وحسنها هو الملك وحسن حاله عنده، أما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ﴿قضي الأمر﴾ قطع وتم ما ﴿تستفتيان﴾ فيه من أمركما وشانكما.

فإن قُلْتُمْ: ما استفتيا في أمر واحد بل في أمرين مختلفين فما وجه التوحيد؟ قُلْتُمْ: المراد بالأمر ما اتبهما به من سم الملك وما سجننا من أجله وظنا أن ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكانت كائنا يستفتياه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك؟ فقال لهما: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي: ما يجر إليه من العقوبة وهي: هلاك أحدهما ونجاة الآخر، وقيل: جدا وقالوا: ما رأينا شيئا على ما روي أنهما تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْني عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُنَّ
الشَّيْطَانُ وَكَرَّرَ رَّبِّهِ، فَلَيْسَ فِي السِّجْنِ بِضَعِّ سِنِينَ ﴿١٤﴾.

﴿ظن أنه ناج﴾ الظان هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي، أو يكون الظن بمعنى اليقين ﴿أنكرني عند ربك﴾ صفني عند الملك بصفتي وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة ﴿فأنساه الشيطان﴾ فأنسى الشرابي ﴿ذكر ربه﴾ أن يذكره لربه، وقيل: فأنسى يوسف نكر الله حين وكل أمره إلى غيره ﴿بضع سنين﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين.

فإن قُلْتُمْ: كيف يقدر الشيطان على الإنساء؟ قُلْتُمْ: يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه نكره، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ (2).

فإن قُلْتُمْ: ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك، وما هي إضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟ قُلْتُمْ: قد لابس في قولك: فأنساه الشيطان نكره لربه أو عند ربه فجازت إضافته إليه؛ لأن الإضافة تكون أنى ملايسة، أو على تقدير فأنساه الشيطان نكر إخبار ربه حذف المضاف الذي هو: الإخبار.

فإن قُلْتُمْ: لم أنكر على يوسف الاستعانة بغير الله في كشف ما كان فيه وقد قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ (3) وقال حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿من

وعلى الناس﴾ أي: على الرسل، وعلى المرسل إليهم؛ لأنهم نبههم عليه وأرشدهم إليه ﴿ولكن أكثر الناس﴾ المبعوث إليهم ﴿لا يشكرون﴾ فضل الله فيشركون ولا يتنبهون وقيل: إن ذلك من فضل الله علينا؛ لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدل بها، وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعاً لاهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين.

يَصْحَبِي السِّجْنِ، أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَرَأَيْتَ اللَّهُ الَّذِي
الْقَهَارُ ﴿١٥﴾.

﴿يا صاحبي السجن﴾ يريد: يا صاحبي في السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذا السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره وهو: يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبك: يا صاحبي الصدق فتضيفهما إلى الصلوق ولا تريد أنهما صحبا الصلوق ولكن كما تقول رجلا صدق وسميتهما صاحبين؛ لأنهم صحباك ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن، كقوله: ﴿أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ (1) ﴿أرباب متفرقون﴾ يريد التفرق في العدد والتكاثر يقول: أن تكون لكما أرباب شتى يستعبد كما هذا ويستعبد كما هذا ﴿خير﴾ لكما ﴿أم﴾ أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية بل هو ﴿القهار﴾ الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام.

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ
الَّذِي لَقِيتُمْ لِيَوْمِكُمْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾.

﴿ما تعبدون﴾ خطاب لهما ولمن على لبيهما من أهل مصر ﴿إلا أسماء﴾ يعني: أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة ثم طففتم تعبدونها فكانكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها ومعنى ﴿سميتها﴾ سميتم بها يقال: سميته بزید وسميته زيدا ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي: بتسميتها ﴿من سلطان﴾ من حجة ﴿إن للحكم﴾ في أمر العبادة والدين ﴿إلا الله﴾ ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾ الثابت الذي نلت عليه البراهين.

يَصْحَبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ
فَيَمْلَأُ فَكُلَّ الْأَطْرَافِ مِن رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١٦﴾.

(1) سورة الحشر، الآية: 20.

(2) سورة البقرة، الآية: 106.

(3) سورة المائدة، الآية: 2.

مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها، الا تراك لا تقول: عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ.

فإن قُلْتُ: ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه، الا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف لوقوع العلم بأن المراد البقرات؟ **قُلْتُ:** ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك: سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف، والعجف الهزال الذي ليس بعده والسبب في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء، وأفعل وفعلاء، لا يجمعان على فعال حملة على سمان لأنه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض.

فإن قُلْتُ: هل في الآية دليل على أن السنبلات اليابسات كانت سبعاً كالخضر؟ **قُلْتُ:** الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف، والسنابل الخضر، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع ويكون قوله: وأخر يابسات بمعنى: وسبماً آخر.

فإن قُلْتُ: هل يجوز أن يعطف قوله: «وأخر يابسات» على «سنبلات خضر» فيكون مجرور المحل؟ **قُلْتُ:** يؤدي إلى تدافع وهو: أن عطفها على سنبلات خضر يقتضي أن ندخل في حكمها فتكون معها مميّزاً للسبع المذكورة، ولفظ الآخر يقتضي أن تكون غير السبع بيانه أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود بالجر فيصح؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود على أن بعضهم قيام وبعضهم قعود، فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود تدافع ففسد «بها أيها الملائكة» كأنه أراد الاعيان من العلماء والحكماء. واللام في قوله: «للرؤيا» إما أن تكون للبيان كقوله: «وكانوا فيه من الزاهدين»⁽⁴⁾ وإما أن تدخل؛ لأن العامل إذا تقدم عليه معموله لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل إذا قلت هو عابر للرؤيا لانحطاطه عن الفعل في القوة، ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما تقول كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه «وتعبرون» خبر آخر أو حال وأن يضمن تعبرون معنى فعل يتعدى باللام كأنه قيل: إن كنتم تتنبون لعبارة الرؤيا، وحقيقة عبرت الرؤيا: نكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول: عبرت النهر إذا قطعت حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره، ونحوه: أولت الرؤيا. إذا نكرت مآلها وهو مرجعها، وعبرت الرؤيا بالتخفيف: هو الذي اعتمده الأثبات، ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض

أنصاري إلى الله⁽¹⁾ وفي الحديث: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم». «ومن فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة»⁽²⁾. وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ لم يأخذ النوم ليلة من الليالي، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت غطيته⁽³⁾، وهل ذلك إلا مثل التداوي بالأدوية، والتقوي بالأشربة والأطعمة، وإن كان ذلك لأن الملك كان كافراً فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق ونحو ذلك من المضار؟ **قُلْتُ:** كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خلقته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاهما، والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكمل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه ولا يعتضد إلا به خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً لئلا يشمت به الكفار ويقولوا: لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيبه لما استغاث بنا، وعن الحسن أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فرزعنا إلى الناس.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنَّ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِبَاقٍ
وَسَبْعَ سَبُلَاتٍ خَضِرٍ وَأَخْرَ يَابِسَاتٍ يَأْكُلْنَ أَلْمَأُ أَفْرَقٍ فِي رُؤْيَى
إِنْ كُنْتُ لِلرُّؤْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٢﴾.

لما بنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبيها وسبباً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها «سمان» جمع سمين وسمينة وكذلك رجال ونسوة كرام.

فإن قُلْتُ: هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للميز وهو بقرات نون المميز وهو سبع وأن يقال: سبع بقرات سمان؟ **قُلْتُ:** إذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهن لا بجنسهن، ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن.

فإن قُلْتُ: هلا قيل سبع عجاف على الإضافة؟ **قُلْتُ:** التمييز موضوع لبيان الجنس والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده.

فإن قُلْتُ: فقد يقولون: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب؟ **قُلْتُ:** الفارس والساحب والراكب ونحوها صفات جرت

(1) الحديث رقم: 2885) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد، (الحديث رقم: 6181).

(4) سورة يوسف، الآية: 20.

(1) سورة آل عمران، الآية: 52، وسورة الصف، الآية: 14.

(2) رواه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (الحديث رقم: 6793).

(3) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الحراسة في الغزو...

الأعراب:

المعنى فأرسلوه إلى يوسف فاتاه فقال: ﴿يوسف أيها الصديق﴾ أيها البالغ في الصديق وإنما قال له ذلك؛ لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه، ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول، ولذلك كلمة كلام محترز فقال ﴿لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ لأنه ليس على يقين من الرجوع فربما اخترم لونه، ولا من علمهم فربما لم يعلموا، أو معنى لعلهم يعلمون: لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محتتك.

فَلَمْ تَزْعُرُنَّ سَجَّ سَيِّئِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُلَيْبِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَجَّ شِدَادًا يَأْكُلُنَّ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَحْوُونُ ﴿٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَيُغِيثُ يُعْمِرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْنِي بِوَدَّ فَلَمَّا جَاءَهُ الرُّسُلُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكُمْ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي كَفَرَ بِالَّذِي جَاءَهُ مِنْ رَبِّهِ يُكِّدِينَ عِلْمٍ ﴿١٥﴾

﴿تزرعون﴾ خبر في معنى الأمر كقوله: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهلون﴾⁽²⁾ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه، واللليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿فذروه في سنبله﴾ ﴿دأبنا﴾ بسكون الهمزة وتحريكها وهما مصدران دأب في العمل وهو: حال من المأمورين أي: دائبين، إما على تدأبون دأبًا، وإما على إيقاع المصدر حالًا بمعنى: نوي دأب ﴿فذروه في سنبله﴾ لثلا يتسوس و ﴿ياكلن﴾ من الإسناد المجازي جعل أكل أهلن مسند إليهن ﴿تحصنون﴾ تحرزون وتخبون ﴿يغاث الناس﴾ من الغوث أو من الغيث يقال: غيث البلاد إذا مطرت ومنه قول الأعرابية: غثنا ما شئنا ﴿يعصرون﴾ بالياء والتاء يعصرون العنب والزيتون والسمسسم، وقيل: يحلبون الضروع، وقرئ: يعصرون على البناء للمفعول من عصره إذا أنجاه وهو مطابق للإغاثه، ويجوز أن يكون المعنى للفاعل بمعنى: ينجون كأنه قيل: فيه يغاث الناس، وفيه يغيثون أنفسهم أي: يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضًا، وقيل: يعصرون يمحطرون من أعصرت السحابة وفيه وجهان: إمامًا: أن يضمن أعصرت معنى: مطرت فيعدي تعديته، وإمامًا: أن يقال: الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل، تأول البقرات السماء والسنبيلات الخضر بسنين مخلصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدية، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركًا خصيبًا كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحي، وعن قتادة: زاده الله علم سنة.

رايت رؤيا ثم عبرتها وكنت للأحلام عبارة
قَالُوا أَصْنَعْتَ أَحْلَامًا وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِشَيْءٍ ﴿١٤﴾

﴿اضغاث أحلام﴾ تخالطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس، أو وسوسة شيطان، وأصل الاضغاث ما جمع من اخلاط النبات وحزم، الواحد ضغث، فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى من أي: اضغاث من أحلام، والمعنى هي اضغاث أحلام.

فإن قلت: ما هي إلا حلم واحد فلم قالوا: ﴿اضغاث أحلام﴾ فجمعوا؟ قلت: هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخزل لمن لا يركب إلا فرسًا واحدًا، وما له إلا عمامة فردة تزيدًا في الوصف، فهؤلاء أيضًا تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه اضغاث أحلام، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة⁽¹⁾ فيقولوا ليس لها عندنا تأويل فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَكَلْنَا مِنْ عَمَلِنَا لَمَّا صَبَرْنَا كَمَا كَفَرْنَا وَهُمْ قُلُوبُنَا غَافِلُونَ ﴿١٥﴾

قرئ: ﴿وانكر﴾ بالدال وهو الفصيح، وعن الحسن: وانكر بالذال المعجمة والأصل تنكر أي: تنكر الذي نجا من الفتيتين من القتل يوسف وما شاهد منه ﴿بعد أمة﴾ بعد مدة طويلة وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملا تأويلها تنكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه إليه أن ينكره عند الملك، وقرأ الأشهب العقيلي: بعد إمة بكسر الهمزة والأمة: النعمة قال عدي: ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القبور أي: بعد ما ناعم عليه بالنجاة وقرئ: بعد أمة بعد نسيان يقال: أمة يامه أمها إذا نسي، ومن قرأ: بسكون الميم فقد خطئ ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ أنا أخبركم به عم عنده علمه، وفي قراءة الحسن: أنا آتاكم بتأويله ﴿فأرسلون﴾ فابعثوني إليه لاسأله ومروني باستعباره، وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّيِّبِيُّ أَنْتَ فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ يَمَانُ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُنْبُلَاتٍ خَضِرٍ وَأَخْرَجَ بِإِسْنَةِ لَمِيٍّ أَرْجِعْ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

= أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا، أو لا، وقول الفتى: أنا أنبئكم بتأويله، إلى قوله لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون، دليل أيضاً على ذلك، والله أعلم.

(2) سورة الصف، الآية: 11.

(1) قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحمل للكلام على الأول يصيره من وادي، على لا حب يهتدى بمناره. كأنهم قالوا: لا تأويل للأحلام الباطلة، فنكون عالمين، وقول الملك لهم أولاً: إن كنتم للرؤيا تعيرون، دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها؛ لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور، مطابقاً لشك الملك، الذي

قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَدَدْتُنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِي قُلْتُ خَشِيَ لِي مَا عَلَيْنَا عَلَيْهِ مِنْ سَوْءِ قَائِلَاتِ امْرَأَتِ الْعَزِيزِ لَئِنْ حَصَحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لِيَنِ السَّكَرِينِ ﴿٥١﴾.

﴿ما خطبكن﴾ ما شانكن ﴿إذ راويتن يوسف﴾ هل وجدتن منه ميلا ليكن ﴿قلن حاش لله﴾ تعجباً من عفته ونهايه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها ﴿قالت امرات العزيز الآن حصحص الحق﴾ أي: ثبت واستقر، وقرئ: حصحص على البناء للمفعول وهو من حصحص البعير إذا لقي ثفثاته للإناخة قال:

حصحص في صم الصفا ثفثاته⁽⁵⁾ وناء بسلامي نوءة ثم صمصا ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة⁽⁶⁾ واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفته به لأنهن خصومه، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال، وقالت المجبرة والحشوية: نحن قد بقي لنا مقال ولابد لنا من أن نق في فروة من ثبتت نزاهته.

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾.

﴿ذلك ليعلم﴾⁽⁷⁾ من كلام يوسف أي: دل التثبيت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز ﴿أني لم أخنه﴾ بظهر الغيب في حرمة. ومحل ﴿بالغيب﴾ الحال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه خفي عن عينه، أو وهو غائب عني خفي عن عيني، ويجوز أن يكون ظرفاً أي: بمكان الغيب وهو: الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة ﴿و﴾ ليعلم ﴿أن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ لا ينفذه ولا يسده وكانه تعريض بامراته في خيانتها أمانة زوجها وبه في خيانتها أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سده.

﴿وَمَا أَرْبِيْ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَكْرَاهُ يَأْسُوهُ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّيْ أَنْ رَبِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

فإن قلت: معلوم أنّ السنين المجديّة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب وإلا لم توصف بالانتهاء، فلم قلت إن علم ذلك من جهة الوحي؟ قلت: ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلاً وقوله: ﴿فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾ تفصيل لحال العام وذلك لا يعلم إلا بالوحي. إنما تأتي وتثبت في إجابة الملك⁽¹⁾، وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح امره عنده ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن سبع سنين إلا الأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره، وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في موافقها قال عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف التهم»⁽²⁾ ومنه قال رسول الله ﷺ للمازين به في معتكفه وعنده بعض نسائه «هي فلانة»⁽³⁾ اتقاء للتهمة. وعن النبي ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره: والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمن، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشتراط أن يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة وبأدبرتهم الباب ولما ابتغيت العذر»⁽⁴⁾ إن كان لحيماً ذا أناة وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل: سله أن يفتش عن شأنهن؛ لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة القصة وقص الحديث حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ: النسوة بضم النون، ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيئته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيهين ﴿إن ربي﴾ إن الله تعالى ﴿بكيدهن عليم﴾ أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله بعد غوره، أو استشهد بعلم الله على أنه كنه وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهن أي: هو عليم بكيدهن فمجازهن عليه.

(1) قال أحمد: ولقد مدح النبي ﷺ على هذه الأناة بقوله: «ولو لبثت في السجن بعض ما لبث يوسف، لأجبت الداعي»، وكان في طي هذه المدحة بالآناة والتثبت، تنزيهه، وتبرئته، مما لعله يسبق إلى الوهم، من أنه همّ بزليخا همّاً يؤاخذ به؛ لأنه إذا صبر، وتثبت فيما لا أن لا يصبر فيه، وهو الخروج من السجن، مع أنّ الدواعي متفرقة على الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم، أولى وأجدر، والله أعلم.

(2) يأتي في سورة الأحزاب.

(3) روه البخاري في كتاب: الاعتكاف، باب: زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، (الحديث رقم: 2038) ومسلم في كتاب: السلام باب: بيان أنه يستحب لمن روي خالياً بامرأة. (الحديث رقم: 5643).

(4) الضميري، وإسحاق بن راهويه وعبد الرزاق في تفسيره (الزليعي) 168/2.

(5) ثفثاته: هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استنخا ونظ الكركبتين وغيرهما، كذا في الصحاح.

(6) قال أحمد: الصحيح من مذاهب أهل السنة، تنزيه أهل الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعاً، وتتبع الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل، ونهب منهم طائفة مع القدرية، إلى تجويز الصغائر عليهم، بشرط أن لا تكون منفرة؛ والصحيح عندنا في قصة يوسف عليه السلام، أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به، وإن الوقف عند قوله: همت به، ثم يتبدأ وهمّ بها، لولا أن رأى برهان ربه، كما تقول: قتلت زيداً، لولا أنني أخاف الله، فلا يكون الهمّ واقعاً لوجود المانع معه، وهو: رؤية البرهان، فإن كان الهممخشري يعرض بأهل السنة، فقد بينا معتقدهم، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة، فشانه وإياهم.

(7) قال أحمد: وإرأته لعموم الأحوال، أنخل في تنزيهه، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه، من التبري من تزكية النفس، فهو أدل على هذا المعنى، من حمله على الحادثة الخاصة، والله أعلم.

تقديم القرآن وتأخيره ذهب إلى أن ذلك ليعلم متصل بقوله: ﴿فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾⁽⁸⁾ ولقد لفتت المبطلات روايات مصنوعة⁽⁹⁾ فزعموا أن يوسف حين قال: إني لم أخنه بالغيب، وقال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حطت تكة سراويلك يا يوسف؟ وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَجْلِبْهُ لِيُقْسَىٰ فَمَا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٤٤﴾

يقال: استخلصه واستخصه: إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به ﴿فلما كلمه﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قال﴾ أيها الصديق ﴿إنك اليوم لدينا مكين﴾ نو مكانة ومنزلة ﴿أمين﴾ مؤتمن على كل شيء، وروي: أن الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لاهله: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخيار، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات، وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من دن السجن ولبس ثياباً جديداً، فلما نخل على الملك قال: اللهم إني أسالك بخيرك من خيريه، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها فأجابه بجميعها، فتعجب منه وقال: أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك، فقال: رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن، ووصف السنايل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفاً، وقال له: من حقاك أن تجمع الطعام في الأهراء، فيأتيك الخلق من النواحي، يمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

فَأَلَّ أَجْمَعِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عِلْمِي ﴿٤٥﴾

﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ ولئني خزائن أرضك ﴿إني حفيظ علمي﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف وصفاً لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لثلاث يكون لها مزكياً وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»⁽¹⁾ وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال ﴿وما أبرئ نفسي﴾ من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية لا أنزكيها، ولا يخلو إما أن يريد في هذه الحادثة لما نكرنا من الهم الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم، وإما أن يريد عموم الأحوال ﴿إن النفس لأماراة بالسوء﴾ أراد الجنس أي: إن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات ﴿إلا ما رحم ربي﴾ إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة، ويجوز أن يكون ما رحم بالسوء في كل وقت وأوان إلا وقت العصمة ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة كقوله: ﴿ولا هم ينقون﴾ * إلا رحمة⁽²⁾ وقيل معناه: ذلك ليعلم أنني لم أخنه؛ لأن المعصية خيانة، وقيل⁽³⁾: هو من كلام امرأة العزيز أي: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أنني لم أخنه ولم أكتب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة فإني قد خنته حين فرقتك وقلت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن﴾⁽⁴⁾ وأودعته السجن، تريد الاعتذار مما كان منها، إن كل نفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ استغفرت ربه واسترحمته مما ارتكبت.

فإن قلت: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا ليل على ذلك؟ قلت: كفى بالمعنى ليلياً قائلاً إلى أن يجعل من كلامه ونحوه قوله: ﴿قال الملا من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾⁽⁵⁾ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره⁽⁶⁾ ثم قال: ﴿فماذا تأمرون﴾⁽⁷⁾ وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم، وعن ابن جريج: هذا من

(1) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (الحديث رقم: 5899) وابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث رقم: 6242) والترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ (الحديث رقم: 3615).

(2) سورة يس، الآيات: 43، 44.

(3) قال أحمد: وإنما يجري الكلام على هذا الوجه، إذا الجأ إليه محج، كقوله: فماذا تأمرون إذ لا يمكن جعله من قول الملا بوجه، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون، وأما هذه الآية، فهي تتلو قوله وإنه لمن الصابقين إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في: ليعلم على العزيز، وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، وذلك قوله: قالت امرأة العزيز، وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها، ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك، وإنه لما تحتمت براءته =

(4) سورة يس، الآيات: 43، 44.

(5) قال أحمد: وإنما يجري الكلام على هذا الوجه، إذا الجأ إليه محج، كقوله: فماذا تأمرون إذ لا يمكن جعله من قول الملا بوجه، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون، وأما هذه الآية، فهي تتلو قوله وإنه لمن الصابقين إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في: ليعلم على العزيز، وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، وذلك قوله: قالت امرأة العزيز، وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها، ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك، وإنه لما تحتمت براءته =

(6) سورة يس، الآيات: 43، 44.

(7) قال أحمد: وإنما يجري الكلام على هذا الوجه، إذا الجأ إليه محج، كقوله: فماذا تأمرون إذ لا يمكن جعله من قول الملا بوجه، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون، وأما هذه الآية، فهي تتلو قوله وإنه لمن الصابقين إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في: ليعلم على العزيز، وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، وذلك قوله: قالت امرأة العزيز، وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها، ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك، وإنه لما تحتمت براءته =

(8) سورة يوسف، الآية: 25.

(9) سورة الأعراف، الآية: 109.

(10) سورة الشعراء، الآية: 35.

(11) سورة الأعراف، الآية: 11.

(12) سورة يوسف، الآية: 50.

(13) قال أحمد: ولقد صدق في التوروك على ما نقلت هذه الزيادات بالبهت، وذلك شأن المبطلات من كل طائفة، كما لفتت القدرية على قصة موسى، حين طلب الرؤية وخرّ صعقاً، أن الملائكة جعلت تلكه بأرجلها، وتقول: يا ابن النساء الحيض، طمعت في رؤية رب العزة، كل ذلك ليتم لهم غرضهم، في أنه طلب لهم محالاً في العقول على الله تعالى، ويحق الله الحق بكلماته، ويبطل الباطل، والله المحقق.

من الممتازين أكثر من حمل بعير تقسيماً بين الناس. وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين **﴿برحمتنا﴾** بعبأتنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرها من النعم **﴿من نشاء﴾** من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك **﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾** أن نأجرهم في الدنيا **﴿ولأجر الآخرة خير﴾** لهم، قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق وتلا هذه الآية.

وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَعَاؤُهُ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُكْرَمُونَ ﴿٨٤﴾

لم يعرفوه (2) لطول العهد ومفارقتهم إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوامهم لقلّة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقه عليها طريحاً في البئر مشرباً بدرامهم معنودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكدبوا أنفسهم وظنونهم، ولأن الملك مما يبدل الزيّ ويلبس صاحبه من التهيّب والاستعظام ما ينكر له المعروف، وقيل: رأوه على زيّ فرعون عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج فما خطر ببالهم أنه هو، وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج، وإنما عرفهم لأنه فارقه وهم رجال، ورأى زيهماً قريباً من زيهم إذ ذاك؛ ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم فكان يتأمل ويفطن، وعن الحسن: ما عرفهم حتى تعرفوا له.

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِ بِأَجْ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَمْ لَا تَزِرُ وَازِرَةَ أَزِيٍّ أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٨٥﴾ فَإِنْ لَرَأَوْنَا نَفْسًا فَكَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٨٦﴾ قَالُوا سَرَّوْهُ عَنْ أَبَاهُ وَإِنَّا لَنَعْتَلُونَ ﴿٨٧﴾

﴿ولما جهّزهم بجهازهم﴾ أي: أصلحهم بعدتهم وهي عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرين وأوفر ركائبهم بما جاؤا من الميرة، وقرئ: بجهازهم بكسر الجيم **﴿قال اتنوني بأج لكم من أبيكم﴾** لآبد من مقمّة سبقت له معهم حتى اجتر القول هذه المسألة، وروي: أنه لما رأهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم فإني أنكركم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجتنا نمتار، فقال: جتتم عيوناً تنظرون عورة بلادى؟ قالوا: معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فهلك منا واحد، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون، وأن الذي تقولون حق؟ قالوا: إننا ببلاد لا يعرفنا

طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكّن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا، وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة» (1).

فإن قلت: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته؟ **قلت:** روى مجاهد: أنه كان قد أسلم، وعن قتادة: هو لليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر. وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه، وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.

وَكَذَلِكَ مَكَانًا يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَوُّ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا نُجْزِ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وكنك﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر **﴿مكننا ليوسف﴾** في أرض مصر، روي أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين **﴿يتبوا منها حيث يشاء﴾** قرئ: بالنون والياء أي: كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبواً له لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها وبخوله تحت ملكته وسلطانه، وروي أنّ الملك توجه وختمه بخاتمة ورداه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، وروي أنه قال له: أما السرير فاشد به ملكك، وأما الخاتم فادبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال: قد وضعته إجلالاً لك وإقراراً بفضلك، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوض الملك إليه أمره، وعزل قطفير ثم مات بعد فزوجه الملك امرأته زليخا، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين: إفرائيم وميشاء، وأقام العدل بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحظ الطعام بالدنانير والدرهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياح والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً، فقالوا: والله ما رأينا كاليوم ملكاً أجّل ولا أعظم منه، فقال للملك: كيف رأيت صنع الله بي فيما خولتني فما ترى؟ قال: الرأي رأيك. قال: فإني أشهد الله وأشهدك أنني اعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع من أحد

(1) أخرجه الثعالبي والواحد في تفسيره.

= ذلك تدل على أن مجرد دخولهم عليه، استعقبته المعرفة بلا مهلة،

والله أعلم.

(2) قال احمد: وتوارد القاميين في دخولهم عليه، ومعرفته لهم، عند =

بحفظه ولا بجمع علي مصيبتين.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا يَضَعُهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا مَا بَنَيْ هَذَا هَذَا يَضَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَحَفِظْنَا أَخَانَا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ ﴿١٥﴾.

وقرى: ردت إلينا بالكسر على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قيل وبيع، وحكي قطرب: ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ﴿ما نبغي﴾ للنفي أي: في القول وما نتزید فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، أو ما نبغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو على الاستفهام بمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا، وفي قراءة ابن مسعود: ما تبغي بالتاء على مخاطبة يعقوب، معناه أي شيء نطلب وراء هذا من الإحسان أو من الشاهد على صدقنا، وقيل معناه: ما نريد منك بضاعة أخرى وقوله: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله: ﴿ما نبغي﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها على معنى إن بضاعتنا ردت إلينا فنستظهر بها ﴿ونمير أهلها﴾ في رجوعنا إلى الملك ﴿ونحفظ أخانا﴾ فما يصيبه شيء مما تخافه، وتزاد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا، فأى شيء نبغي وراء هذه المباحي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا، وإنما قالوا: ﴿وتزاد كيل بعير﴾ لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط.

فإن قُلت: هذا إذا فسرت البغي بالطلب، فاما إذا فسرت بالكذب والتزديد في القول كانت الجملة الأولى وهي قوله: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ بيانا لصدقهم، وانتفاء التزديد عن قيلهم فما تصنع بالجمال البواقى؟ قُلت: أعطفها على قوله ﴿ما نبغي﴾ على معنى لا نبغي فيما نقول ونمير أهلنا وتفعل كيت وكيت، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ كقولك: وينبغي أن نمير أهلنا كما تقول: سعيت في حاجة فلان واجتهدت في تحصيل غرضه، ويجب أن أسعى وينبغي لي أن لا أقصر، ويجوز أن يراد ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع بيانا لأنهم لا يبيغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه وهو وجه حسن وأضح ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: ذلك مكيل قليل لا يكفينا يعنون ما يكال لهم، فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيه، أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير أي: ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاضمه، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وأن حمل بعير واحد شيء يسير

فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة واثتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فاصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضايفتهم ﴿ولا تقربون﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون داخلًا في حكم الجزاء مجزوماً عطفاً على محل قوله: ﴿فلا كيل لكم﴾ كأنه قيل: فإن لم تاتوني به تحرموا ولا تقربوا، وأن: يكون بمعنى النهي ﴿سنراود عنه أباه﴾ سنخادعه عنه وسنجهده ونحتال حتى ننتزعه من يده ﴿وإنا لفاعلون﴾ وإنا لقادرون على ذلك لا نتعاضى به، أو وإنا لفاعلون نلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

وَقَالَ لِيُفَيْتِيهِمْ أَجْمَلًا يَضَعُهُمْ فِي رِحْلِهِمْ لَمَّا هُمْ يَمْرُؤُهُمْ إِذَا أَنْكَبُوا إِلَيْهِمْ لَمَّا هُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾.

﴿لغيتيه﴾ قرى: لغيتانه وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ، وفعلة للقلّة وفعالن للكثرة، أي: لغماته الكياليين ﴿لعلهم يعرفونها﴾ لعلهم يعرفون حق ردها وحق التكرم بإعطاء البديلين ﴿إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم، وقيل: تخوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به، وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً، وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وقيل: معنى ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعلهم يردونها.

لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتَا مَعْ يَنَا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَمُ كَافِرُونَ ﴿١٧﴾.

﴿منع منا الكيل﴾ يريدون قول يوسف: ﴿فإن لم تاتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ لأنهم إذا انثروا بمنع الكيل فقد منع الكيل ﴿نكتل﴾ نزع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه، وقرى: يكتل بمعنى: يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنأ، أو يكن سبباً للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

قَالَ هَلْ أَمْنَكُم عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٨﴾.

﴿هل أمنكم عليه﴾ يريد أنكم قلت في يوسف ﴿وإنا له لحافظون﴾^(١) كما تقولونه في أخيه خنتم بضمانكم، فما يؤمني من مثل نلك؟ ثم قال: ﴿فأله خير حافظاً﴾ فتوكل على الله فيه وبقعه إليهم، وحافظاً تمييز كقوله: هو خيرهم رجلاً، والله ذره فارساً، ويجوز أن يكون حالاً وقرى: حفظاً، وقرأ الأعمش: فأله خير حافظ، وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو أن ينعم علي

لا يخاطر لمثله بالولد كقوله: ﴿ذلك ليعلم﴾⁽¹⁾.

قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾

﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾⁽²⁾ مناف لحالي وقد رأيت منكم ما رأيت إرساله معكم ﴿حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما أتوثن به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله، وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدد، وقد آذن الله في ذلك فهو إن من منة ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ جواب اليمين؛ لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتتنني به ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾⁽³⁾ إلا أن تغلبوا فلم تطبقوا الإتيان به أو إلا أن تهلكوا.

فإن قُلْتُ: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء فيه إشكال؟ قُلْتُ: ﴿أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ مفعول له والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ في تأويل النفي معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم أي: لا تمتنعون منه لعله من العلل إلا لعله واحدة وهي أن يحاط بكم فهو استثناء من أعم العام في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده فلا بد من تأويله بالنفي، ونظيره من الإثبات المتأول بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت تريد: ما أطلب منك إلا الفعل ﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع.

وَقَالَ يَسَّىٰ لَا تَدْعُلُوا مِنْ بَابِ رَجِيرٍ وَادْعُلُوا مِنْ أَرْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا دَعُلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهُ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد؛ لأنهم كانوا نوي بهاء وشارة حسنة اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود وأن يشار إليهم بالأصابع

ويقال: هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتیان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرمهم الملك وقربهم وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانونا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور فيصيبهم ما يسوؤهم، ولذلك لم يوصهم بالتفريق في الكرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس.

فإن قُلْتُ: هل للإصابة بالعين وجه تصح عليه؟ قُلْتُ: يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه وخللاً من بعض الوجوه ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده ليمتيز المحققون من أهل الحشو فيقول المحقق: هذا فعل الله، فيقول الحشوي: هو أثر العين كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَنْتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽⁴⁾ الآية. وعن النبي ﷺ: «إنه كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعينكما بكلمات الله التامة من كل عين لامة ومن كل شيطان وهامة»⁽⁵⁾. ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: إن أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفريق وهو مصيبكم لا محالة ﴿إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ثم قال ﴿وَلَمَّا نَحَلْنَا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: متفرقين ﴿وَمَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ رأى يعقوب ودخولهم متفرقين شيئاً قط حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم، من إضافة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيه بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء منقطع على معنى ولكن حاجة ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وهي شفقتة عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ يعني قوله: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ﴾ وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر.

وَلَمَّا دَعُلُوا عَلَىٰ يُوْسُفَ مَا رَاىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿أَوْىٰ إِلَيْهِ إِخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامين، وروي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلستني معه، فقال

= مقرون بذكر المستثنى منه، ولا كذلك الإتيان، فإنه لا إشعار له بعموم الأحوال؛ لأنه لا يتوقف إلا على أحدها، والله أعلم، ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم: البلاء موكل بالمنطق، فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف: ﴿وإخاف أن ياكله الثيب﴾ فابتلي من ناحية هذا القول، وقال ههنا ثانياً: إلا أن يحاط بكم، أي تغلبوا عليه، فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه.

(4) سورة المدثر، الآية: 31.

(5) رواه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: (10) (الحديث رقم: 3371) وأبو داود في كتاب: السنة، باب: في القرآن (الحديث رقم: 3737).

(1) سورة يوسف، الآية: 52.

(2) قال أحمد: إن للنفي المؤكد، وأما قول الزمخشري في المنافاة له، فله وراء ذلك غرض، إنما يطلع عليه من قل كلامه علماً، وذلك أنه اعتمد في إحالة الرؤية على الله تعالى، على أن قوله تعالى: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ معناه: أن الرؤية منافية لحالي، وجعل هذا المنافاة من مقتضى لن، ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت، كل ذلك لتمرّن الأذهان على أن هذا مقتضى لن، وقد سبق وجه الرد عليه في ذلك.

(3) قال أحمد: وإنما اختص هذا النوع من الاستثناء بالنفي؛ لأن المستثنى منه، مسكوت عنه، والنفي عام، إذ يلزم من نفي الإتيان. مثلاً: نفى جميع العوارض اللاحقة به ضرورة، فكانه لعمومه =

كفيل أؤديه إلى من جاء به وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُسَيْدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سُرِقِينَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن يُؤَدِّ فِي رَحْمِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾.

﴿تأش﴾ فسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم، وإنما قالوا: ﴿لقد علمتم﴾ فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل بينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك؛ ولأنهم دخلوا أفواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق؛ ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ﴿وما كنا سارقين﴾ وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا ﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصواع أي: فما جزاء سرقة ﴿إن كنتم كاذبين﴾ في حجوبكم وأدعائكم البراءة منه ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله﴾ أي: جزاء سرقة أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة، فلذلك استفتوا في جزائه، وقولهم ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم أي: فاخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير كقولك: حق زيد أن يكسي ويطعم وينعم عليه فذلك حقه أي: فهو حقه لتقرر ما نكرته من استحاقه وتلزمه، ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها مقام المضمرة، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه فهو هو يرجع الضمير الأول إلى من والثاني إلى الأخ، ثم تقول: فهو أخوه مقيماً للمظهر مقام المضمرة، ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف أي: المسؤول عنه جزاؤه ثم أفتوا بقولهم: ﴿من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ كما يقول: من يستفتي في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: ﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾^(١).

بَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَذْنَا لِيُؤَسِّتَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي رِيَنِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن بَسَّأَهُ اللَّهُ تَرْفَعُ رَدْرَجَتَهُ مَنَ شَأْنَهُ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾.

﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ قيل: قال لهم: من وكل بهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى ننظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه. وقرأ الحسن: وعاء أخيه بضم الواو وهي لفة، وقرأ سعيد بن جببر: إعا أخيه بقلب الواو همزة.

يوسف: بقي أخوكم وحيداً فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله وقال: انتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتقتت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: اتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له: ﴿إني أنا أخوك﴾ يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك. وعن ابن عباس: تعرف إليه. وعن وهب: إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم، وروي أنه قال له: فإنا لا أفارقك، قال: قد علمت اغتمام والدي بي فإذا حبستك ازداد غمه ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك، قال: فإني أس صاعى في رحلك ثم أنادي عليك بانك قد سرقتك ليهياً لي ريك بعد تسريحك معهم، قال: أفعل.

فَلَمَّا جَهَرُوا بِمَهْرِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسُرِقُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٨﴾.

﴿السقاية﴾ مشربة يسقى بها وهي: الصواع. قيل: كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها، وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك، وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأجاج، وقيل: كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجوهر ﴿ثم أذن مؤذن﴾ ثم نادى مناد، يقال أنه أعلمه، وأذن أكثر الإعلام ومنه المؤذن لكثرة نك منه. وروي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ثم أمر بهم فاندكروا وجبسوا ثم قيل لهم ذلك. والعيير الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنها تعير أي: تذهب وتجيء، وقيل: قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل كسقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وعيد والمراد: أصحاب العير، كقوله: يا خيل الله أركبي. وقرأ ابن مسعود: وجعل السقاية على حذف جواب لما كأنه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ثم أذن مؤذن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: تفقدون من أفقديته إذا وجدته فقيداً. وقرئ: صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها والعين معجمة وغير معجمة ﴿وأننا به زعيم﴾ يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير

وضع البضاعة في رحالكم. واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة فقيل: كان أخذ في صباحه صنماً لجده أبي أمه فكسره وألقاه بين الجيف في الطريق، وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه، وقيل: كانت في المنزل عناق أو دجاجة فأعطاهما السائل، وقيل: كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحق، ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمه وكانت لا تصبر عنه، فلما شبَّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقدت منطقة إسحق، فانظروا من أخذها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أفعلم به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت ﴿فأسرها﴾ إضمار على شريطة التفسير تفسيره ﴿انتم شر مكاناً﴾ وإنما أنت؛ لأنَّ قوله: انتم شر مكاناً جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة كانه قيل: فاسرَّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله: انتم شر مكاناً، والمعنى: قال في نفسه: انتم شر مكاناً، لأنَّ قوله: قال انتم شر مكاناً بدل من أسرها، وفي قراءة ابن مسعود: فاسرَّه على التذكير يريد القول أو الكلام، ومعنى: انتم شر مكاناً انتم شر منزلة في السرقة؛ لانكم سارقون بالصحة لسرقتكم أخلكم من أبيكم ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة وليس الأمر كما تصفون.

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أُمَّدَنَا مَكَانَهُ
إِنَّا نُرَاكَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٧٨﴾

فاستعطفوه بإنكارهم إياه حق أبيهم يعقوب وإنه شيخ كبير السن أو كبير القدر وأن بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولدًا له قد هلك وهو عليه ثكلان وأنه مستانس بأخيه ﴿فخذ أمدنا مكانه﴾ فخذه بذله على وجه الاسترهان أو الاستعباد ﴿إننا نراك من المحسنين﴾ إلينا فاتمم إحسانك، أو من عادتك الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها.

قَالَ مَسَاةَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ إِذَا
ظَلَلْنَا ﴿٧٩﴾

﴿معاذ الله﴾ هو كلام موجه ظاهره أنه وجب على قضية فنواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذ غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم، وبياطنه إنَّ الله أمرني وأوحى إليَّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جملة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظلماً وعملاً على خلاف الوحي، ومعنى: معاذ الله ﴿إننا نأخذ﴾ نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ، فاضيف المصدر إلى المفعول به

فإن قلت: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنه؟ قلت: قالوا رجع بالتأنيث على السقاية أو أنت الصواع لانه يذكر ويؤنث، ولعلَّ يوسف كان يسميه سقاية وعبده صواعاً، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل به منه صواعاً ﴿كنكك كحننا﴾ مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ﴿ليوسف﴾ يعني: علمناه إياه وأوحينا به إليه ﴿ما كان ليأخذ نخاه في بين الملك﴾ تفسير للكيد وبيان له؛ لانه كان في بين ملك مصر وما كان يحكم به في السارق: أن يغرّم مثلي ما أخذ لا أن يلزم ويستعبد ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي: ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإنه فيه ﴿ترفع درجات من نساء﴾ في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه، وقرئ: يرفع بالياء ودرجات بالتونين ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فوّه أرفع درجة منه في علمه، أو وفوق العلماء كلهم عليم هم نونه في العلم وهو الله عز وعل.

فإن قلت: ما أتى الله فيه يجب أن يكون حسناً، فمن أي وجه حسن هذا الكيد، وما هو إلا بهتان وتسريق لمن لم يسرق وتكذيب لمن لم يكذب وهو قوله: ﴿إنكم لسارقون﴾ ﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾؟ قلت: هو في صورة البهتان وليس بهتان في الحقيقة؛ لأنَّ قوله: ﴿إنكم لسارقون﴾ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف، وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله: ﴿إن كنتم كاذبين﴾ فرض لانتهاء براءتهم وفرض التكذيب لا يكون تكديماً، على أنه لو صرح لهم بالتكذيب كما صرح لهم بالتسريق لكان له وجه؛ لانهم كانوا كاذبين في قولهم: ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب﴾ (1) هذا، وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع بينية كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وخذ بيك ضغثاً﴾ (2) يتخلص من جلدها ولا يحث وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقيها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلماً ودرية إليها فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما نكرنا.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَسْرَاهَا
يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَكَفَّ يُبَيِّهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا تَصِفُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿أخ له﴾ أرابوا يوسف، روي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤسهم حياءً وأقبلوا عليه وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسوت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ذهبتم بأخي فاهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي

وحذف من، وإذًا ﴿جواب لهم وجزاء؛ لأن المعنى: إن أخذنا ببله ظلمنا.﴾

فَلَمَّا أَنْتَبَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَتَانَكُمْ مَدَّ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا فُرِطَتهُ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ إِلَيَّ آيَةٌ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٦﴾.

﴿استياسوا﴾ يتسوا وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مر في استعصم. والنجي على معنيين: يكون بمعنى: المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى: ﴿وقربناه نجياً﴾ (1) وبمعنى المصدر الذي هو: التناجى كما قيل النجوى بمعناه، ومنه قيل: قوم نجى، كما قيل: ﴿وإن هم نجوى﴾ (2) تنزيلاً المصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال: هم نجى، كما قيل: هم صديق؛ لأنه بزنة المصادر وجمع أنجبة، قال:

إنني إذا ما القوم كانوا أنجبة

ومعنى ﴿خلصوا﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿نجياً﴾ نبي نجوى، أو فوجاً نجياً أي: مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً، وأحسن منه أنهم تمحضوا نتاجياً لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه يجد واهتمام كانهم في أنفسهم صورة التناجى وحقيقته، وكان تناجيبهم في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؛ كقوم تعابوا بما دهمهم من الخطب فاحتاجوا إلى التشاور ﴿كبيرهم﴾ في السن وهو: روييل، وقيل: رئيسهم وهو: شمعون، وقيل: كبيرهم في العقل والرأي وهو: يهوذا ﴿وما فرطتم في يوسف﴾ فيه وجوه: أن تكون ما صلة أي: ومن قبل هذا قصر تم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم، وأن تكون مصدرية: على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل، ومعناه: ووقع. من قبل تفريطكم في

يوسف، أو النصب عطفاً على مفعول: ألم تعلموا وهو أن أياكم كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف، وأن تكون موصولة: بمعنى ومن قبل هذا ما فرطتموه أي: قدتمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة ومحل الرفع أو النصب على الوجهين ﴿فلن أبرح الأرض﴾ فلن أفرق أرض مصر ﴿حتى يأتني لي نبي﴾ في الانصراف إليه ﴿أو يحكم الله لي﴾ بالخروج منها، أو بالانصراف ممن أخذ أخي، أو بخلصه من يده بسبب من الأسباب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لَلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٧﴾.

وقرى: سرق أي نسب إلى السرقة ﴿وما شهدنا﴾ (3) عليه بالسرقة ﴿إلا بما علمنا﴾ من سرقاته وتيقناه؛ لأن الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ (4) وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف، ومن قرأ سرق فمعناه: وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التشريق، وما كنا للغيب: للأمر الخفي، حافظين: أسرق بالصحة لم نس الصاع في رحله ولم يشعر.

وَسَلَّ الْأَنْزِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٧﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرًا جَبِلاً عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٨﴾.

﴿القرية التي كنا فيها﴾ هي مصر أي: أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ وأصحاب العير وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب، وقيل: من أهل صنعاء. معناه فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً﴾ (5) أربتموه، وإلا فما أدري ذلك الرجل إن السارق

(1) سورة مريم، الآية: 52.

(2) سورة الإسراء، الآية: 47.

(3) قال أحمد: إما أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ، أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد إنكاره، يجب له أحكام السارق، فيكون العلم على ظاهره إذا، وإما أن لا يكون كذلك، فهذا القدر من مجرد وجوده في رحله، لا يجب علم كونه سارقاً، وغايته أن يفيد ظناً بيناً، فيكون المراد بالعلم ههنا: الظن، وقد ورد مثله، ويكون قولهم: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ تنبيهاً على أن مستندهم فيما قالوه ظنٌ بمقتضى ظاهر الحال، وأما كشف باطن الأمر الموجب للعلم، فليسوا يدعون عليه.

(4) قال أحمد: وإنما تلتزم القراءتان على التاويل الذي نكرته، وهو: أنهم إنما أضافوا إليه السرقة، ظناً بمقتضى ظاهر الحال، واحترزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة، فقالوا: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ فالقراءتان على التاويل المنكور، يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه، وإما على غيره من التاويلات المنكورة، فلا تنتظم القراءتان؛ لأن مقتضى الأولى الجزم عليه بالسرقة =

= علماء، ومقتضى الثانية التبري من الجزم، والله اعلم.

(5) قال أحمد: وهذا الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كان قائلًا يقول: هم في الوقعة الأولى، سؤلت لهم أنفسهم أمراً بلا مرأ، وأما في هذه الوقعة الثانية، فلم يتعمقوا في حق بنيامين سواء، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته، وما تركوه بمصر، إلا مغلوبين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً: ﴿بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً﴾ كما قال لهم أولاً، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير، فلا بد من زيد بسط في الجواب، فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قمن باتهامه لم أسلفوه في حق يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من بين يعقوب وحده، لا من بين غيره من الناس، ولا من عاداتهم، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما كان لياخذ أخاه في دين الملك﴾ تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بغتواهم له به، وظن أنهم اقتروه بذلك بعد ظهور السرقة تعدداً، ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل =

تلكى. قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله ساعة قط»⁽⁷⁾.

فإن قُلْتَ: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ. قُلْتَ: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنما عليك يا إبراهيم لمحزونون»⁽⁸⁾. وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنباح ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب، وعن النبي ﷺ: أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يوجد بنفسه فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهتكم عن صوتين أحمقن: صوت عند الفرح، وصوت عند الترح»⁽⁹⁾. وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره، فقيل له في ذلك: فقال: «ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب» فهو كظلم. فهو مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم، فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله: وهو مكظوم: من كظم السقاء إذا شدة على ملئه والكظم بفتح الظاء مخرج النفس يقال: أخذ بكظماه.

قَالُوا تَاللَّهِ لَمَتَوَّأ تَدَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ⁽¹⁰⁾.

﴿تفتؤ﴾ أراد لا تفتؤ فحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلتبس بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بدمن اللام والنون، ونحوه:

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا

ومعنى لا تفتؤ: لا تزال، وعن مجاهد: لا نفتن من حبه كانه جعل الفتوة والفتور أخوين، يقال ما فتئ يفعل، قال أوس:

فما فتئت خيل تثوب وتدعي ويلحق منها لاحق وتقطع
﴿حرضاً﴾ مشفياً على الهالك مرضاً، وأحرضته

يؤخذ بسرقة لولا فتواكم وتعليمكم ﴿بهم جميعاً﴾ بيوسف وأخيه وروبييل أو غيره «إنه هو العليم» بحالي في الحزن والأسف «الحكيم» الذي لم يبتلى بذلك إلا لحكمة ومصلة.

رَوَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَعْدُ عَلَى يُونُسَ وَأَبِيصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ⁽¹¹⁾.

﴿وتولى عنهم﴾ وأعرض عنهم كراهة لما جاؤا به ﴿يا أسفى﴾ أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإصابة والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع ونحوه: «أثاقلتم إلى الأرض أرضيتكم»⁽¹⁾ «وهم يهون عنه وينأون عنه»⁽²⁾ «يحسبون أنهم يحسنون»⁽³⁾ «من سبنا سبنا»⁽⁴⁾ وعن النبي ﷺ: «لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون»⁽⁵⁾ عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترح وإنا قال ﴿يا أسفى﴾⁽⁶⁾.

فإن قُلْتَ: كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث. والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً؟ قُلْتَ: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف وأنه لم يقع فائت عنده موقعه، وأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غصاً عنده طرئاً ولم تنسني أو في المصيبات بعده، ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به ﴿وابيضت عيناه﴾ إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، قيل: قد عمي بصره، وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً. قرئ: من الحزن ومن الحزن، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض فكانه حدث من الحزن، قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام: «ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف؟ قال: وجد سبعين

= أن يدعى عليهم السرقة، فنكروا ما عندهم، ولم يشعروا أن المقصود إزمامهم بما قالوا، وإتاهم من هو، بحيث تتطرق التهمة إليه، لا حرج فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد، ويحتمل، والله أعلم، أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعت عليه، فإن كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك، ففتواهم إذا غير محررة، وهو إشعار بانهم كانوا حراساً على ثبوت السرقة عليه، ويؤكد ذلك قولهم: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه، والله أعلم، وقوله: «بيل سولت لكم انفسكم أمراً» واقع بمكانه من حالهم، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأول، والله المستعان.

(2) سورة الأنعام، الآية: 26.

(3) سورة الكهف، الآية: 104.

(4) سورة النمل، الآية: 22.

(5) سورة البقرة، الآية: 156.

(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب (الحديث رقم: 9691).

(7) لم يروه الطبري إلا من قول الحسن 174/2.

(8) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ «إنا بك لمحزونون» (الحديث رقم: 1303) ومسلم في صحيحه كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ بالصبيان (الحديث رقم: 5979).

(9) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ «يعد الميت ببعض بكاء أهله عليه» (الحديث رقم: 1284)، ومسلم في كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت (الحديث رقم: 2132).

المرض ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لانه مصدر، والصفة حرض بكسر الراء ونحوهما: دنف ودفن، جاءت القراءة بهما جميعاً، وقرأ الحسن: حرضاً بضمّتين ونحوه في الصفات رجل جنب وغرب.

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيثبه إلى الناس أي: ينشره، ومنه: باث أمره وأبثه إياه ومعنى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا﴾ إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربي داعياً وملتجئاً إليه فخلوني وشكائتي، وهذا معنى توليه عنهم أي: فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه، وقيل: دخل على يعقوب جار له فقال: يعقوب قد تهشمت وفنيت من السن ما بلغ أبوك فقال: هشمني وأفنانني ما ابتلاني الله به من هم يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أشكوني إلى خلقي؟ قال يا رب خطيئة أخطأتها فاعف لي، فغفر له. فكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ وروي: أنه أوحى إلى يعقوب إنما وجبت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه وإن أحب خلقي إلي الأنبياء ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا احتسب، وروي: أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حي فاطلبه. وقرأ الحسن: وحزني بفتحّتين، وحزني بضمّتين قتادة.

يَكْفِي أَذْهَابًا فَحَسَبُوا مِنْ يَوْمِئِذٍ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَيْهِ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿فَتَحَسَّبُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما، وقرئ: بالجيم كما قرئ: بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو: المعرفة ﴿فَلَمَّا أَحْسَسَ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾^(١)، ومن الجس وهو: الطلب، ومنه قالوا لمشاعر الإنسان الحواس والجواس ﴿مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ من فرجه وتنغيسه، وقرأ الحسن وقاتدة: من روح الله: بالضم أي: من رحمته التي يحيا بها العباد.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْنَا النَّفْرُ وَحَسْنَا بِصِنَعِهِ مُرْتَجِرَةً فَأَوْبِنَا لَنَا الْكَيْلَ وَصَدَقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

﴿الضر﴾ الهزال من الشدة والجوع ﴿مزجاة﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحترقاً لها من أزعجته إذا نفغته وطرته، والريح تزجي السحاب. قيل: كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمناً، وقيل: الصنوبر وحب الخضراء، وقيل: سويق المقل والأقط، وقيل: دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضعية ﴿فاوف لنا الكيل﴾ الذي هو حقنا ﴿وتصدق علينا﴾ وتفضل علينا بالمسامحة والإعاض عن رداءة البضاعة، أوزدنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لاتلزمه صدقة؛ لأن الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل: كانت تحل لغير نبينا، وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال: ألم تسمع ﴿وتصدق علينا﴾ أراد أنها كانت حلالاً لهم، والظاهر أنهم تمسكوا له وطلبوا أن يتصدق عليهم ومن ثم رق لهم وملكتهم الرحمة عليهم فلم يتمالك أن عرفهم نفسه وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ شاهد لذلك لذكر الله وجزائه، والصدقة: العطية التي تتبغى بها المثوبة من الله، ومنه قول الحسن لمن سمعه يقول: اللهم تصدق علي: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَصَدَّقُ، إِنَّمَا يَتَصَدَّقُ الَّذِي يَبْتَغِي الثَّوَابَ، قُلْ: اللَّهُمَّ أَعْطِنِي أَوْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ أَوْ ارْحَمْنِي.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْمَئِذٍ وَإِخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾

﴿قال هل علمتم﴾⁽²⁾ اتاهم من جهة الدين، وكان حليماً موفقاً فكلمهم مستهتماً عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح ﴿ما فعلتم بيوسف وإخيه﴾ إذ أنتم جاهلون؟ لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجزى إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيحاً لهم في الدين لا معاتبة وتثريباً، إيثاراً لحق الله على نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب وينفث المصدور ويتشفى المغيظ المحقق ويدرك ثاره الموتور، فلهذا أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها، والله حصا عقولهم ما أرزنها وأزجحها. وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم، لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل سماهم

(1) سورة آل عمران، الآية: 52.
(2) قال أحمد: ومن تطفه بهم قوله: ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ كالأعتذار عنهم؛ لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار، لم يلفوا عنراً كهذا، إلا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر نفسه، لم يزد على أن قال: فعلتها إذًا، وأنا من الضالين، وروى أنهم لما قالوا مسنا وأهلنا الضر، وتضرعوا إليه، أرفض عيناه، ثم قال هذا القول، وقيل: أنوا إليه كتاباً من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق يبيع الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر: أما بعد، فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي، فشدت يدها ورجلاه، ورمى إلى النار ليحرق، =

فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي، فوضعت المدينة في قفاه لينبح، ففداه الله، وأما أنا، فكان لي ابن، وكان أحب أولادي إلي، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميص ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناى من بكائي عليه، ثم كان لي ابن، وكان أخاه من أمه، وكنت أتسلى به، فذهبوا به، ثم رجعوا، فقالوا إنه سرق، وأنتك حبسته لذلك، وإنما أهل بيت، لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي، وإلا دعوت عليك دعوة، تبلغ السابع من ولدك، والسلام. فلما قرأ الكتاب، بكى، وكتب الجواب: اصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا.

أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ من يخف الله وعقابه ﴿وَيُصْبِرِ﴾ على المعاصي وعلى الطاعات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ﴾ أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين.

قَالُوا تَأَلَّهَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ اللَّهُ عِلْمًا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾.

﴿لقد أترك الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وإن شأنا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم لم نتق ولم نصبر، لا جرم أن الله أعزك بالملك وأنلنا بالتمسك بين يديك.

قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَبُورُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾.

﴿لا تثريب عليكم﴾ لا تأنيب عليكم ولا عتب، وأصل التثريب من الثرب، وهو: الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة الثرب كما أن التجليد والتقرير إزالة الجلد والقرع؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجز الذي ليس بعده، فضرِبَ مثلاً للتقرير الذي يمزق الأعراس ويذهب بماء الوجوه.

فَإِنْ قُلْتُمْ⁽²⁾: بم تعلق ﴿اليوم﴾ قُلْتُمْ: بالترتيب، أما بالمقدر في عليكم من معنى الاستقرار، أو يغير والمعنى: لا أثرىكم اليوم، وهو: اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتداء فقال: ﴿يغفر الله لكم﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً، ومنه قول المشمت: يهديكم الله ويصلح بالكم، واليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل غفران الله لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم. وروي أن رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح لقريش: «ما ترونني فاعلأ بكم؟ قالوا: نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، فقال: أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾»⁽³⁾ وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فاتل عليه ﴿قال لا تثريب عليكم﴾ ففعل، فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك ولمن علمك»⁽⁴⁾. ويروى: أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه إنك تدعوننا إلى طعامك بكرة وعشية ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إلي بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلغ عبداً ببيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم.

جاهلين، وقيل: معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أو أن الحلم والرزانة روي: أنهم لما قالوا: ﴿مسنأ وأهلنا الضر﴾⁽¹⁾ وتضرعوا إليه أرفضت عيناه ثم قال: هذا القول، وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أما بعد فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فشدت يده ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فوضع السكين على فقاها ليقتل ففداه الله، وأما انا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بمقيصه ملطخاً بالدم وقالوا: قد أكله الثب، فذهبت عينا من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت اتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وأنت حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن ربدته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابح من ولدك، والسلام، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك. وروي: أنه لما قرأ الكتاب بكى، وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

فَن قُلْتُمْ: ما فعلهم بأخيه؟ قُلْتُمْ: تعريضهم إياه للغم والشك بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام التليل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾.

قري: أثنتك على الاستفهام، وأنت على الإيجاب، وفي قراءة أبي: ائنتك أو أنت يوسف على معنى: أثنتك يوسف، أو أنت يوسف، فحنف الأول لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع فهو يكرر الاستتباب.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كيف عرفوه؟ قُلْتُمْ: رأوا في رواه وشمائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم لا عن بعض أعزاء مصر، وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم، وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه، فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها تشبه الشامة البيضاء.

فَإِنْ قُلْتُمْ: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه على أن أخاه كان معلوماً لهم؟ قُلْتُمْ: لأنه كان في نكر

(1) سورة يوسف، الآية: 88.

(2) قال أحمد: وهذا المعنى: إنما يتوجه على الإعراب الأول، وهو الأوجه، الا ترى إلى قولهم بعد ذلك: ﴿يا أبانا استغفر لنا نؤبنا إنا كنا خاطئين﴾ وقوله: ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾ دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب، ولو كان متعلقاً بغير الزم، أن يقطعوا =

= بغفران نذبهم، حينئذ بأخبار النبي الصديق، ويحتمل أن يقال: إنما أراد: مغفرة ما يرجع إلى حقه لونه حق أبيه، إذ الإثم كان مشتركاً بينهما، والله أعلم. (قوله: كانت أمه تحي، وقيل: هما أبوه وأخته).

(3) رواه أبو عبيد في كتاب: الأموال ص 51 (الحديث رقم: 298).

(4) قال الزليعي: غريب جداً 2/179.

بالمملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾.

﴿سوف استغفر لكم﴾ قيل: أخرج الاستغفار إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتعمد به وقت الإجابة، وقيل: ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، وقيل: أراد اللوام على الاستغفار لهم، فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إن الله قد غفر لك ولهم أجمعين، وروي أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة: ما يغني عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا؛ فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرّت لنا عين أبداً، فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في ذلك وعقد موثيقهم بعدك على النبوة، وقد اختلف في استنباتهم.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَأَيُّكُمْ ﴿١٨﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْمَرْثَىٰ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِنَايَ أَخْرَجْنَا مِنَ الْمِحْرَبِ رَجُلًا يَكْفُؤُا بِنَايَ وَمِنَ الْمِحْرَبِ إِنَّا رَبِّي لَأَبِئْتُ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾.

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ قيل: وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر باجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهودا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهودا أهذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ولك، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام: السلام عليك يا مذهب الأحران، وقيل: إن يوسف قال له لما التقيا: يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك، وقيل: إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمي، وكانت الذرية ألف ومائتي ألف ﴿أوى إليه ليوبي﴾ ضمهما إليه واعتنقهما. قال ابن أبي إسحق: كانت أمه تحيي وقيل: هما أبوه وخالته ماتت أمه فتزوجها وجعلها أحد الأبوين، لأن الرابة تدعى أمًا لقيامها مقام الأم، أو لأن الخالة أم كما أن العم أب ومنه قوله:

أَذْهَبُوا بِمِصْرِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَىٰ رَجْوِي أَبِي يَأْتِ بِبَصِيرًا وَأَنْزِلْ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾.

﴿اذهبوا بمصري هذا﴾ قيل: هو القميص المتوارث الذي كان في تعويد يوسف وكان من الجنة أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي ﴿بات بصيرًا﴾ يصر بصيرًا كقولك جاء البناء محكمًا بمعنى: صار، ويشهد له ﴿فارتد بصيرًا﴾⁽¹⁾ أو بات إلي وهو بصير وينصره قوله: ﴿واتوني باهلكم أجمعين﴾ أي ياتني أبي وياتني آله جميعًا وقيل: يهودا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوحًا بالدم إليه فافرحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُنذِرُنِي ﴿١٤﴾.

﴿فصلت العير﴾ خرجت من عريش مصر، يقال: فصل البلد فصولاً إذا انفصل منه وجاوز حيطانه، وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير ﴿قال﴾ لولد ولده ومن حوله من قومه ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتقيد النسبة إلى القند وهو: الخرف وإنكار العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة لأنها لم تكن في شببيتها ذات رأي فتفند في كبرها، والمعنى: لولا تفنيكم إياي لصدقتموني.

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَمِى سَلْبِكَ الْكَدِيرِ ﴿١٥﴾.

﴿لفي ضللك القديم﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدمًا في إفراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقاءه، وكان عندهم أنه قد مات.

فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٧﴾.

﴿القاء﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو القاه يعقوب ﴿فارتد بصيرًا﴾ فرجع بصيرًا، يقال: رده فارتد وارتده إذا ارتجعه ﴿الم أقل لكم﴾ يعني: قوله: ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾⁽²⁾ أو قوله: ﴿ولا تياسوا من روح الله﴾⁽³⁾ وقوله: ﴿إني أعلم﴾ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول ولك أن توقعه عليه وتريد قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾⁽⁴⁾ وروي أنه سال البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، ما اصنع

(3) سورة يوسف، الآية: 87.

(4) سورة يوسف، الآية: 86.

(1) سورة يوسف، الآية: 96.

(2) سورة يوسف، الآية: 94.

﴿وَالَهُ أَبَانُكَ إِبرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾⁽¹⁾.

فإن قلت: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلت: كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت، ثم فدخلوا عليه وضمَّ إليه أبويه. ثم قال لهم: ﴿انخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ ولما نخل مصر وجلس في مجلسه مستويًا على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير ﴿وخرّوا له﴾ يعني: الإخوة الأحد عشر والأبوين ﴿سجدًا﴾ ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه فدخلوا عليه القبة فأواهما إليه بالضم والاعتناق وقربهما منه وقال بعد ذلك: انخلوا مصر.

فإن قلت: ثم تعلقت المشيئة قلت: بالدخول مكيفًا بالأمن؛ لأنَّ الغصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكانه قيل لهم: اسلموا وآمنوا في دخولكم إن شاء الله، ونظيره قولك للغازي: ارجع سالمًا غانمًا إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقًا ولكن مقيدًا بالسلامة والغنيمة مكيفًا بهما، والتقدير: انخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذو الحال، ومن بدع التفاسير أن قوله: إن شاء الله من باب التقديم والتأخير وإن موضعها ما بعد قوله: ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾⁽²⁾ في كلام يعقوب، وما أدري ما أقول فيه وفي نظائره.

فإن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ قلت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير، وقيل: ما كانت إلا انحاءً دون تعفير الجباه وخرورهم سجدًا ياباه، وقيل معناه: وخرّوا لأجل يوسف سجدًا لله شكرًا وهذا أيضًا فيه نبوة. يقال أحسن إليه وبه، وكذلك أساء إليه وبه. قال:

أسبئي بنا أو أحسني لا ملومة

﴿من الجدو﴾ من البادية؛ لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجح ﴿نزع﴾ أفسد بيننا وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري يقال: نزعته ونسغه إذا نخسه ﴿لطيف لما يشاء﴾ لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وروي: أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فأنخله خزائن الورق والذهب وخزائن الحلبي وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك، فلما أدخله خزنة القراطيس قال: يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فسله، قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿وأخاف أن

يأكله الذئب﴾⁽³⁾ قال: فهلا خفتني. وروي: أن يعقوب أقام معه أربعًا وعشرين سنة ثم مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له طلبت نفسه الملك الدائم الخالد فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيبًا طاهرًا، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه، كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال، فராوا من الرأي أن عملوا له صندوقًا من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعًا واحدًا، وولد له إفرائيم وميشا، وولد لإفرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وأبائه إلى أن بعث الله موسى ﷺ.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ لِي﴾، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالْمَسْلُومِينَ ﴿١٣﴾.

من في ﴿من الملك﴾ و ﴿من تاويل الأحاديث﴾ للتبعية؛ لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التاويل ﴿أنت وليي﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، ويوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿توفني مسلمًا﴾ طلب للوفاء على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسن كما قال يعقوب لولده: ﴿ولا تموتنَّ إلا وأنت مسلمون﴾⁽⁴⁾ ويجوز أن يكون تمنيا للموت على ما قيل ﴿والحقتني بالصالحين﴾ من آبائي أو على العموم، وعن عمر بن عبد العزيز: أن ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت فقال له: صنع الله على يديك خيرًا كثيرًا، أحبيت سننًا وأمت بدعًا، وفي حياتك خير وراحة للمسلمين فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿توفني مسلمًا والحقتني بالصالحين﴾.

فإن قلت: علام انتصب ﴿فاطر السموات﴾؟ قلت: على أنه وصف لقوله: ﴿ربِّ﴾ كقولك: أخا زيد حسن، أو على النداء.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿نُكِّل﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله ﷺ ومحلّه الابتداء وقوله: ﴿من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ خبر إن، ويجوز أن يكون اسمًا موصولًا بمعنى الذي، ومن أنباء الغيب صلته وتوحيه الخبر

(3) سورة يوسف، الآية: 13.

(4) سورة آل عمران، الآية: 102.

(1) سورة البقرة، الآية: 133.

(2) سورة يوسف، الآية: 98.

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَىٰ بِهِمُ النَّعَاطَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾.

﴿غاشية﴾ نعمة تغشاهم، وقيل: ما يغمرهم من العذاب ويجللهم، وقيل: الصواعق.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ اللَّهِ عَلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَصِيرَةٌ أَنَا وَرَبِّي أَتَّبِعَنَّ
اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾.

﴿هذه سبيلي﴾ هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: ﴿أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ أي: أدعوا إلى بيته مع حجة واضحة غير عمياء و ﴿أنا﴾ تأكيد للمستتر في أدعو ﴿ومن اتبعني﴾ عطف عليه، يريد أدعو إليها أنا ويدعو إليها من اتبعني، ويجوز أن يكون أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبراً مقدماً ومن اتبعني عطفاً على أنا إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى، ويجوز أن يكون على بصيرة حالاً من أدعو عاملة الرفع في أنا ومن اتبعني ﴿وسبحان الله﴾ وانزهه من الشركاء.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَا يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٩﴾.

﴿إلا رجالاً﴾ لا ملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ (4) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد ليست فيهم امرأة، وقيل في سجاج المتنبئة؛ ولم تزل أنبياء الله نكرانا

وقرى: نوحى إليهم بالنون ﴿من أهل القرى﴾؛ لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿ولدار الآخرة﴾ ولدار الساعة أو الحال الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. وقرى: أفلا تعقلون بالياء.

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَوَلَّوْا أَنفُسَهُمْ قَدْ كَذَّبُوا حَتَّىٰ هُمْ نَصَرْنَا فَنَجَّىٰ مِنْ نَشْأَةٍ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿حتى﴾ متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخي نصرهم حتى إذا استياسوا عن النصر (5) ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ أي: كذبتم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو رجأهم لقولهم: رجاء صادق ورجاء كاذب، والمعنى: أن مدة التكنيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة

والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو إلقاءهم أحاهم في البئر كقولهم: ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب﴾ (1) وهذا تهكم بقريش وبمن كذب؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم وقيل لهم: قد علمتم بالمكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية ونحوه ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ (2) ﴿وهم يمكرون﴾ بيوسف وبيغون له الغوائل.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾.

﴿وما أكثر الناس﴾ يريد العموم كقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ (3) وعن ابن عباس رضي الله عنه: أراد أهل مكة أي: وما هم بمؤمنين ﴿ولو حرصت﴾ وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم.

وَمَا تَشَاءُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ آجِرٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْمَلِئِينَ ﴿٢٢﴾.

﴿وما نستلهم﴾ على ما تحدثهم به وتذكهم أن ينبلوك منفعة وجدوى كما يعطي حملة الأحاديث والأخبار ﴿إن هو إلا نكر﴾ عظة من الله ﴿للعالمين﴾ عامة وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

وَكَايُنُ مِنْ مَّابِئٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿من آية﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿يمرون عليها﴾ ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها. وقرى: والأرض بالرفع على الابتداء ويمرون عليها خبره وقرأ السدي: والأرض بالنصب على ويطؤون الأرض يمرون عليها، وفي مصحف عبد الله، والأرض يمشون عليها برفع الأرض، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿وما يؤمن أكثرهم﴾ في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلقه.

(1) سورة يوسف، الآية: 15.

(2) سورة القصص، الآية: 44.

(3) سورة هود، الآية: 17.

(4) سورة فصلت، الآية: 14.

(5) قال أحمد: ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر في الدنيا، بل كانوا يظنون ذلك، ويرجونه، لا عن إخبار وحي.

عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

الرَّءْيَا تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والمراد بالكتاب السورة أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال: ﴿والذي أنزل إليك﴾ من القرآن كله هو ﴿الحق﴾ الذي لا مزيد عليه لا هذه السورة وحدها، وفي أسلوب هذا الكلام قول الانمارية: هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها تريد الكلمة.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِعَمْرِ رَبُّوْنَ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى السَّمَوَاتِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفْعِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ تُؤْتُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَةِ جَمَلٌ فِيهَا وَزَيْنٌ مُّتَّبِعٌ يُغْشَى الْبَلَدَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

﴿الله﴾ مبتدأ و ﴿والذي﴾ خبره بدليل قوله: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ ويجوز أن يكون صفة، وقوله: ﴿يدبر الأمر يفصل الآيات﴾ خبر بعد خبر وينصره ما تقدمه من ذكر الآيات ﴿رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ كلام مستأنف استشهد برؤيتهم لها كذلك، وقيل: هي صفة لعدم ويعضده قراءة أبي: ترونها، وقرئ: عمد بضممتين ﴿يدبر الأمر﴾ أمر ملكوته وربوبيته ﴿يفصل﴾ آياته في كتبه المنزلة ﴿لعلكم توقنون﴾ بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه، وقرأ الحسن: ندبر بالنون ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت، وقيل: أراد بالزوجين الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة ﴿يغشى الليل والنهار﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً، وقرئ: يغشى بالتشديد.

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَرِزْقٌ رَّغِيْبٌ سِوَانٌ وَغَيْرُ سِوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجَيْرٍ قَصِيْبٍ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

﴿قطع متجاورات﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة

من غير احتساب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وظنوا⁽¹⁾ حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، وقال: كانوا بشرًا وتلا قوله: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾⁽²⁾ فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن: ما يخطر بالبال ويهيج في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية. وأما الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد مزه عن كل قببح، وقيل: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا أي: أخلفوا أو وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل أي: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقهم فيه، وقرئ: كذبوا بالتشديد عليّ وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم، وقرأ مجاهد: كذبوا بالتخفيف على البناء للفاعل هي وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصر، إما على تأويل ابن عباس، وإما على أن قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم: إنكم قد كذبتونا، فيكونون كاذبين عند قومهم، أو وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، وقرئ: بهذا مشدداً: لكان معناه: وظن الرسل أن قومهم كذبوهم في موعدهم. قرئ: فننجي بالتخفيف والتشديد من أجهاد ونجاة وفنجي على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابن محيصن: فنجأ. والمراد: ﴿ممن نشاء﴾ المؤمنون؛ لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم وقد بين ذلك بقوله: ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾.

لَا تَأْتِي فِي فَمَصِّهِمْ عِيْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيْلٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذَا وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

انضمير في ﴿قصصهم﴾ للرسول وينصره قراءة من قرأ: في قصصهم بكسر القاف، وقيل: هو راجع إلى يوسف وإخوته.

فإن قلت: لإلام يرجع الضمير في ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ فيمن قرأ بالكسرة؟ قلت: إلى القرآن أي: ما كان القرآن حديثاً يفترى ﴿ولكن﴾ كان تصديق الذي بين يديه أي: قبله من الكتب السماوية ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه في الدين؛ لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل، وانتصاب ما نصب بعد لكن للعطف على خبر كان، وقرئ: نك بالرفع علي ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

عن رسول الله ﷺ: «علموا أرقاعكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه، هون الله

(2) سورة البقرة، الآية: 214.

(3) نكره الثعلبي في تفسيره.

(1) قال احمد: وهذا ايضا تأويل حسن، ينظم بين القراءتين؛ لأن ظن الأمم كتب رسلهم، تكذيب لهم، فيؤدي مؤدى قراءة التشديد.